Mnyool.com

سمير عبده

# نفسيات المشاهير

* الطبعة الأولى: ١٩٨٦
* تصميم الغلاف: ابتسام عيسى
* الخطوط: عيسى. ف. عيسى

* مطبعة النصر ـــ دمشق طبع من هذا الكتاب ٤٠٠٠ نسخة.

* الناشر: دار النصر ـ بيروت فهد عجلوني

# المقدمة

منذ عدة سنوات وضعت كتابا عن ( العلاقة المتبادلة بين العبقرية والجنون ) كان من فصوله بابا عن نفسية العباقرة ، تناولت به بشكل موجز بعض الاطوار التي يمر بها العبقري ، والتي تبدو غريبة لنا نحن الاسوياء - إن صح التعبير .

ولكني بعد مضي بعض الوقت ، شعرت ان هناك حاجة ماسة لتحليل نفسية بعض المشاهير، نظرا للتضارب القائم بين مفهوم الشهير ومفهوم المرض النفسي ، بحيث أن بعض المشاهير يصنفون في خانة أنصاف المجانين ، إن لم يكونوا أصلاً مجانين . وفي رحلة البحث عن المشاهير يمر بك الكثير من الانماط التي قد يخطىء الكاتب إذا استند إلى مرجع دون مراجع اخرى في الأخذ بتشخيصها أو وصفها لهذا الشهير أو ذاك . وفي ذلك لايستطيع الكاتب أن يبتدع الافكار ابتداعاً ، أو يبتكرها ابتكاراً ، فهو لايستطيع أن يحدث شيئاً من لا شيء ،وإنما هو يستطيع أن يبني شيئاً من أشياء ، ويولد شيئاً من شيء ، لذلك نرى الكاتب أو المحلل النفساني يحتال احتيالا على توليد الأفكار ، ويظهر لنا ذلك من كتابة أي كاتب .

إننا في رحلة الكتابة نفكر في كتابة الكثير، لكن قطار العمر قصير ، ولان الكتابة يجر بعضها بعضاً ، فكلما كتبنا موضوعاً قفز إلى ذهننا - نحن الكُتاب - موضوعاً آخر وهكذا ، وفي ذلك لا نستطيع أن نقول أنه دليل الحياة،والحياة لا يحدها حد لما تحيط بهمن أسرار وحوادث وتطورات وأهوال، كما هو شأننا في العلم الحديث الذي كلما توصل إلى اكتشاف أدى ذلك إلى أسرار وأسرار ، ولهذا يظل العلماء يلاحقون أسرار الحياة التي لا يمكن أن تنتهي عند حد . كذلك الحال مع الكتاب الذين يرون في ذلك معينا لا ينضب لأفكارهم ولموضوعاتهم .

إن كتابنا هذا يتناول الأشخاص الذين نشأوا في ظل الحضارة وتفاعلوا فيها ، وحفظ التاريخ ذكرهم وسجل سيرهم ، واولئك الذين غمرتهم الأحداث أو ضاعوا في متايه النسيان . وسير هؤلاء الأشخاص ـ ما وضح منها وما استتر ـ دليل على الحضارة . فإن ما تنطوي عليه هذه السيّر من دوافع الاختيار ووجوه السلوك ، ومن الآراء والمعتقدات ، ومن الاتجاهات والاختبارات ، ومن الفضائل والنقائص ـ إن هذا كله مرآة صادقة للأوضاع الحضارية التي عاش هؤلاء الأشخاص في كنفها .

والرغبة أو التفكير لا يكفيان لاضافة أنملة من التطول الفعلي إلى ارتفاع جسم الانسان . ولكن بالفكر الصائب يمكن أن نمد طاقة القوى الذهنية إلى أبعد من مداها الأصلي ، وإن كان ذلك يبدو للوهلة الأولى مستحيلا . إذ لايمكن أن تستخرج من آلة التفكير أو الاستدلال أكثر مما وضعت فيها ابتداء . فكيف يمكن للعقل أن يرتفع بنفسه مستويات أعلى من حقيقته الواعية ؟

والجواب المذهل أن العقل يصنع هذا . وطالما صنعه وسيصنعه . فانتصارات العلم ، وتيار الاختراع والاكتشاف كلها أفكار حققت أشياء جديدة ، وهي دليل قاطع مستمر على قيام الذكاءالخالق . فهذه المكتشفات والاختراعات وحلول المشكلات ، إنما هي أبنية تقدمية من صنع التفكير ومادته ، وكما يوجد منطق خاص للتحقيق والاثبات نفحص به الحقائق ونصنفها ، فثمة أيضاً منطق للاختراع أو الابتداع ، به تظهر حقائق جديدة في عالم الوجود .

إذا كان لفظ الأصالة وصف لنتاج الذكاء الخالق ، فإنه يترك العملية نفسها مبهمة . وأخشى أن عالم النفس قد لا يستطيع شيئاً كثيراً لرفع هذا الابهام ، ولا أمل كبير له في أن يحدد المركز المخي للاصالة في الدماغ . فعالم النفس يعترف بأن الأصالة مرتبطة ومعتمدة على التركيب النفسي المصاحب لها . وأقصى ما يستطيع هو الاشارة الى التأثيرات التي توافق ظهور هذه الموهبة أو تعوق ظهورها .

إن الميل الى الأصالة قد تخمده العوائق الاجتماعية ، فإذا بالعقل يجد نفسه معقداً،ويجد مسالكه مسدودة . إذ أن السلطة قد تصم بالجنون الفكر الابداعي وتعتبره خطراً على كيانها . ولكل عصر ضحاياه من هذا النوع . ولكل مجتمع قيوده الخاصة به التي يكبل بها مفكريه ذوي الجرأة والخيال . وإذا كنا نوافق أن المخيلة يجب أن تركب لها اللجم لكي ترتبط وتوجه لخدمة غايات عملية نافعة ، فإن المخيلة الجامحة قد تؤدي في أصالتها إلى مخاطر وخيمة ، حين يستولي داء البرانويا على عقل صاحبها . والذكاء ينبغي أن يكون مجدياً في خلقه وإبداعه ، والأصالة ينبغي أن توجه إلى غايات مفيدة .

كلمة أخيرة في موضوع هذا الكتاب : إذا كانت عبارة الصحة المنطقية فيما تناولنا تحليلها في هذا الكتاب قد أوحت إلينا بها الحملة الناجحة التي أطلق عليها اسم الصحة العقلية وأريد بها فن المحافظة على الجهاز النفسي كله من شعور وتفكير وعمل في حالة صلاحية كاملة ، فإن الصحة المنطقية يمكن أن تطبق على ذلك القسم من برنامج الصحة العقلية الذي يختص بسياق التفكير الرشيد . فنحن نفكر على خير وجه ، مثلما أي شيء على خير وجه ، عندما نكون متمتعين بصحة عقلية وجسمية سليمة .

وإذا كانت الأمور العاطفية والأنفعالية تؤثر في المقام الأول على التفكير الجيد وتتدخل فيه . فالتفكير يقتضي حالة عقلبة هادئة ، بيد أنها مصحوبة بالاهتمام ، والشرط الأول للصحة المنطقية الجيدة هو توفر تلك الحالة السليمة من الصحة العقلية العامة . فنحن لا نعيش لنفكر بل نفكر لنعيش . وعن طريق الفكر نعيش حياة أوفر خصباً وأرحب أفقاً ، وأغنى وأعمق .

إن التحليل النفسي للمشاهير الذين تناولناهم لايختلف كثيراًن مسألة تفسير تأخر طفلي أو طفلك في العودة إلى البيت ، وإن كان تشخيص المشاهير أكثر تعقيداً . بيد أن المسألتين تقومان على نمط التفسير أو التعليل الذي يبدأ بنتيجة الملاحظة ثم يبحث عن القاعدة ليجعل من الموضوع حالة خاضعة لها .

وفي حالة كونك من علماء النفس الذين يدرسون الأحلام ، أو من علماء الطبيعة الذين يهتمون بالمد والجزر ، أو من علماء وظائف الأعضاء الذين يدرسون الإحساس بالألوان ، فإني سأسمي تفسيري أو تعليلي للأحلام أو للمد والجزر ولرؤية الألوان نظرية أو فرضاً . وإذا كان الموضوع يتعلق بمسألة متشابكة متأرجحة كالموضوع الذي اطرقه سميت ذلك تحليلا . وذلك كله تفسير أو تعليل يمضي بنفس الأسلوب . وهو أسلوب يحدد للموضوع قانوناً يندرج تحته . وهذا العمل يسميه أصحاب علم المنطق تعميمًا . من هنا ، من الإحساس بهذا التوجيه والإستجابة له ، كان هذا الكتاب ، كالكتاب السابق الذي أشرت إليه في بدء المقدمة ، ذو بعدين : وجه تاريخي ، وتحليل نفسي .

شباط ١٩٨٥

سمير عبده

# تمهيد

يعزى إلى فرويد فضل القيام بدور هام في كتابة السير النفسية المشاهير، وتوجيه إهتمام خاص إلى خلقهم النفسي الدفين ، وأكثرهم ممن اعترف الناس بنبوغهم وجعلهم في الغالب كأبطال تعبد عن طريق ضال . وفي ذلك نرى أن هذا الاهتمام ينطوي أيضاً على خطر المبالغة فيه . وإذا كان الشهير لا يمثل مرتبة المشاهير في عيون قومه فإن هذا قد يرجع إلى قصور في فهم القوم : أما تجرد الشهير من عظمته في عين المحلل النفسي فيقوم على أساس آخر.وقد فهم فحص التحليل النفسي للمشاهير بعد وفاتهم على أنه مكمل لبرنامج سير سيرهم وليس بديلا منه ، فالتحليل يعتمد على بيانات مسجلة ، ويعدها مفتاحاً لدراسة عميقة للشخصية .

كانت أول دراسة لفرويد عندما حلل شخصية ليورناردو دافنشي وتبع هذه البداية عدد من المحللين النفسيين ، فحللوا على نمط فرويد ، وبطريقة قريبة أو بعيدة من طريقته ، عدة شخصيات أخرى . ومن أمثلتهم ( ل . بيرس كلارك ) إذ عرض مجموعة هامة من الشخصيات التاريخية لفحص التحليل النفسي . وسلك بعض المحترفين في كتابة السير السبيل نفسه . فكتب ( أميل لودفيغ ) تحليله لقيصر ألمانيا . وكان الهدف ( كما يذكر جوزيف جاسترو ) من هذه التحليلات النفسية إزاحة الستار عن الشخصيات ( الواقعية ) لابراهام لنكولن ، ومارك توين ، ونابليون ، وبايرون ونيتشه . وقد ساهمت الدكتورة ( لوسيل دولى ) بتحليل هذه الشخصيات الشهيرة ،عن طريق دراستهم على أساس البواعث النفسية وحالتهم الطبعية ، أو الشاذة . وقد نشأت مدرسة زولا الواقعية مستقلة عن فرويد ، وأقرت أن الإنسان ككائن حي يجب أن تسجل سيرته في عمق ، وبطريقة تصويرية إلى جوار شخصيته في حياته الواقعية .

ومن الجائز تطبيق علم نفس الأعماق لفهم شخصيات وأعمال من كان لهم أثر بارز في مجرى الأعمال البشرية ، بحيث أن أحوال المرء وتصرفاته في شؤونه الداخلية الخاصة تتجلى وتطغى على أحواله وتصرفاته العامة . وسرد سير العظماء يحتاج إلى تكملته بإضافة البواعث الخفية ، وإظهار ما في خلقهم من محاسن ونقائص . وهذا هو لب التحليل النفسي .

إن التحليلات المتعلقة بالشخصيات الشهيرة تشمل التفسير التحليلي النفسي للحياة وتتشعب حتى تتناول الأحداث الهامة أو التافهة في الطفولة وفي الأحلام ، وفي العلاقات الخاصة وفي العمل ، وتشير إلى العقد النفسية . وقد ظهرت تفسيرات تحليلية لشخصيات المسيح ، وبولص الطرسوسي ، وفرنسيس الاسيزى ، ولوثر ، وسويد نبرغ ، وماري بيكرادي وكلهم من المتصلين بالدين . وظهرت تحاليل أخرى للحكام مثل الاسكندر الأكبر ، وهنري الثامن ، والملكة إليزابيت ، ونابليون ، ولويس نابليون ، والملكة فيكتوريا ، وروزفلت ، وودرو ويلسون ، ولينين . ومن المشاهير ظهرت أيضاً سيّر ليوناردو دافنشي ، ومايكل أنجلو ، وأندريا ده سارتو ، وشوبير ، وفان غوغ . أما عن المفكرين فظهرت عن سقراط وداروين وشوبنهور ، ونيتشه ، ومن الكتاب هومير ، وأناتول فرانس ، وشارلوت برونتي ، وأميل برونتي ، وموبسان ودوستوفسكي ، وفلوبير ، وفرنسيس طومسون ، وغوته ، وهيبل ، ونوت همسون ، ومارك توين ، وأوسكار وايلد ، وادغار ألن بو ، وشنيتزلر وسترندبرغ . واستدت هذه التحليلات إلى الكتابات الأدبية فتناولت شخصيات ليدى ماكبث ، وشايلوك ، وهاملت ، وسالومى ، وليليوم ، وبيرجنت وشخصيات مآسي سوفوكليس ، ومسرحيات ريتشارد فاغنر . وقد حلل فرويد الخيالات والأحلام في قصة غراديفا للشاعر جينسن . ومع أن الشاعر لم ير هذه الأحلام ولكنه نظم شعرها ، فإنه عزاها إلى خلقه ، إذ هي تتلائم مع أصل الأحلام ، وهي تدل فرويد على أن وسائل البصيرة الشعرية مثل خيالات الأطفال يمكن تفسيرها بالتحليل النفسي .

على أن التحليل بوساطة معان مبهمة وألفاظ جوفاء ، بعيد كل البعد عن

التعليل العلمي الذي يعتمد على الملاحظة المضبوطة والتجريب المتواصل . فالإنسان هو المشكلة الكبرى ، لا الإنسان من حيث هو حيوان بل من حيث هو عقل . وجميع مشاكل الكون تصغر إذا ما قورنت بمشكلة العقل . فالإنسان عالم صغير ولكنه يفوق في تعقده تعقد العالم الكبير . والعقل الإنساني هو الذي يفسر العالم الكبير ، لا العكس . فمعرفتنا الكون بأسره ومعرفتنا ما يصدر عن نشاط الإنسان من تأثيرات في الكون مرهونة بمعرفتنا لطبيعة العقل الإنساني . فكل نواحي النقص التي نلمسها في علومنا وكل اسباب الخيبة التي تصيبنا في محاولاتنا التطبيقية تعود في نهاية الأمر إلى نقص بوظائف العقل . وإذا تصفحنا تاريخ الفكر الإنساني ، فكل نواحي النقص التي نلمسها في علومنا وكل أسباب الخيبة التي تصيبنا في محاولاتنا التطبيقية تعود في نهاية الأمر إلى نقص علمنا بوظائف العقل . وإذا تصفحنا تاريخ الفكر الإنساني منذ عهد سقراط حتى يومنا هذا لألفينا أن جميع الفلاسفة لم يعنوا بمشاكل الكون الطبعي عنايتهم بمشكلة العقل ، وما كان يردده سقراط على أسماع تلامذته بأن يحاولوا قبل كل شيء معرفة أنفسهم لايزال المهمة الكبرى الملقاة على عاتق المفكرين والفلاسفة .

ويذهب أنصار مدرسة ما فوق الطبيعة إلى أن الفنان الأصيل هو من باعد عن كل منطق أو نشاط عقلي إرادي وأطلق الفنان لريشته وهو يرسم ، وفسح دونها المجال لتنساب بعيدة عن التقيد بانفعال ذاتي . وقد ضجر رواد هذه المدرسة من المنطق والتحليل الخاضع للقواعد وسئموا الأصول الرتيبة وراحوا إلى أن الحقيقة الحسابية التي تقول بأن اثنين مع اثنين تساوي أربعة غدت بالية وهي تساوي خمسة أو ستة ما شاء الله مما توحيه المخيلة .

والمشاهير بالاجمال هم عرضة لمظاهر القلق . من ذلك أن الشاعر الصيني تشوبنج نحر نفسه غرقاً بعد أن تأمل الحياة بنظرة فلسفية تشبه نظرة هنري ثورو، وقد اعتزل الحياة ولجأ إلى الريف وأخذ يفكر في الحياة والموت إلى جانب نبع ماء هادىء . وسأل يوماً متنبأً من المتنبئين : ( هل ينبغي لي أن أواصل السير

في طريق الحق والوفاء أو أسير في ركاب جيل فاسد ضال ؟ هل أعمل في الحقول بالفأس والمجرف أو أسعى للرقي في حاشية شهير من المشاهير ؟ هل أعرض نفسي للخطر بما أنطق به من صريح اللفظ أو أتذلل بالنغم الزائف للأثرياء والمشاهير؟ وهل أظل قانعاً راضياً بنشر الفضيلة أو أمارس فن مصانعة النساء كي أنال النجاح ؟ هل أكون نقي السريرة ، طاهر اليد صالحاً مستقيمًا ، أو أكون معسول الكلام مذبذباً متزلقاً ، نهازاً للفرص ) .

إن المشاهير يلتزمون في الغالب العزلة التي تؤدي أحيانا بهم الى الشهرة . فالتصرف بالحساسية التي تسبب لهم الألم بالاضافة الى الخيال والوجدان وقوة الأدراك ، كذلك العزلة والأنصراف عن الحياة ، تعمل جميعها على قطع الروابط التي تمسك العقل ليتمكن من الانصراف في تفكيره الى الحقيقة . وقد قال ارسطو ان الممتازين من الرجال في الفلسفة او السياسة والشعر والفن كلهم من ذوي المزاج المكتئب أو الجنون الساكت .

والاتصال المباشر بين الجنون والشهرة يؤيده تاريخ اعاظم الرجال مثل روسو وبايرون وغيرهما . ويذهب ( ول ديورانت ) الى القول ( وبعد بحث دقيق في مستشفيات المجانين وجدت حالات فردية لمرضى كانوا من ذوي المواهب الشهيرة وكانت تظهر لي عبقريتهم جلية واضحة من خلال جنونهم ) ومع ذلك ففي أنصاف المشاهير العظماء هؤلاء تكمن الارستقراطية الحقيقية للجنس البشري .

كما ان الطبيعة من حيث العقل ارستقراطية الى مدى كبير . وقد وجدت من الفوارق بين الناس ما يفوق الفوارق التي اوجدتها مميزات المولد والرتب ، والثروة والطبقة . ان الطبيعة لا تمنح العبقرية الا للقليل من الناس لأن العبقرية تعوق سير الحياة العادية التي تقتضي التركيز في الأمور الخاصة السريعة ، لقد ارادت الطبيعة ان يكون حتى المتعلمين والمثقفين حارثين للأرض .

وفي عنوان كتابنا اردنـــا بنفسيات المشاهير هنا أوسع معاني الكلمة، وهو التمادي في خطة الى أبعد ما يدخل في حدود المعقول، والاسترسال في رأي أو فلسفة

أو متعـة ،أو مغامرة ،الى حد تنبو عنه الطبيعة البشرية . فالجنون هنا يمكننا اعتباره نتيجة لاختلا ل التوازن العقلي وعدم انتظام القوى العقلية لسبب ما ، ينـدر ألا يكون مرضا عضويا مكتسبا ( ينتاب المخ ) . ويختلف الشهير عن الشخص العادي في النوع . ويظن الكثيرون أن ضعيف العقل والشهير شيء واحد ، ويعتبرون ان ضعيف العقل على هذا الاساس مريض يمكن شفاؤه من مرضـه كالمجنـون ، ولكن الواقع غير ذلك ، وان كان هناك بعض الحالات الطفيفة التي يجتمع فيها الضعف العقلي والجنون في شخص واحد .

وفي تصورنا ان الشهرة كالعبقرية ،تلازمها في كثير من الاحايين أعراض تشبه في مجموعها بعض أعراض الجنون ، أو تكون جنونا فعلا . وقد تكون ناتجة عن مس فعلي في المخ ، أو اضطراب في الجهاز العصبي ، يعاود صاحبه من حين الى حين . وقد يكون ما نسميه جنونا ، فكرة مستترة في ذهن العظيم لايعلم مراميها ولا يقرأ منافعها سواه من وراء حجاب المستقبل .

والامثلة التي سنتناولها لاتعني أن اختلال التوازن العقلي يتلازم حتما مع الشهرة والبطولة والشهرة والنبوغ . وإنما كل ما يمكن أن يقال ، أن حالات الجنـون وشبه الجنون والاضطرابات العقلية والنفسية أكثر حدوثا بين النوابغ والمشاهيروالأبطال ، منها بين عامة الناس . ومن المشاهد أن هذه الاضطرابات تصيب هؤلاء بين الأربعـين والخـامسـة والخمسين من أعمارهم ، مثال ذلك روسو ، ونيتشه ، وشوبنهور ، وفرنسيس جولتون ( ابن عم داروين ) ، واسحق نيوتن ، وغوته ، وموباسان ،ودستويفسكي ، وشوبان ، وبيتهوفن . ومن سوء حظ هؤلاء والإنسانية أجمع ان طب الأمراض النفسية في العصور التي عاشوا فيها ، كان غاية في التأخر والإنحطاط ، ولولا هذا لكان حظهم من الشفاء أكبر ومن الانتاج الفلسفي والعلمي والأدبي أكبر .

كان موريل عالم النفس يقول بالامكان اعتبار الحالة العصبية المرضية كمرحلة رقاد الجنون ، فما لا شك فيه أن عدداً كبيراً من الأشخاص يعانون طيلة حياتهم من حالة مشابهة دون أن يجتازوا الخط الفاصل ، الذي يصعب كثيرا

تحديده بدقة ، والذي يفصل العقل عن الجنون .

فالمزاج العصبي يمكن أن يوجد خارجا عن المرض النفساني ( أو الذهان ) ويكتسب من جراء ذلك نوعا من الاستقلال عن المرض النفساني ( الذهان ) . أن يكون سيكولوجيا الامراض العقلية ، بعد موريل لم تفعل سوى تبسيط هذه الفكرة . فهي تنشر اطاراتها التشخيصية على طائفة واسعة من الافراد الذين كانوا يدَعون حتى ذلك الحين بصورة بعيدة عن الدقة بكلمات مثل مرضى عقليا ، أو طباع معوجة ، أو أشخاص شاذون ، وتحاول تنظيمها على وجه أفضل .

ورغم أن بعضا من أساليب سبر الشخصية بالطرق العاكسة هو قديم جداً ، وحتى معاصر لبداية أسلوب الاختبارات ، فهو لم يلق الانتشار الذي نراه اليوم الا اعتبارا من الحرب الاخيرة . ولتحاشي سوء التفاهم والغموض فاننا نقرر عبارة الفهم للمعرفة الحاصلة بواسطة السبر السيكولوجي ، ونميز الفهم المستقر عن الفهم التكويني .

إن اكتشاف رابطة موضوعية ، تربط بين السبب و النتيجة ، الملحوظة من الخارج ،بواسطقة أساليب العلوم الطبعية ، لا يُدْعى ابدا ( فهما ) إنما يدعى دوما ( تفسيرا ) . الفهم والتفسير لهما اذن مدلول محدد بدقة ، ويظهر للمبتدىء بوضوح أكثر فأكثر عندما يتقدم في قراءة هذا المؤلّف وعندما يلج التفاصيل . إن عبارة ( التأليف ) يمكن ، على العكس ، أن يكون لها هذان المعنيان ، وهي تُستعمل في حالات افتراضية أو عندما يُراد الاعراب عن التفسير والفهم في آن واحد .

وهكذا فإن امكانية دراسة منتظمة وبحث خصب في السيكولوجيا المرضية للمشاهيرهي خاضعة لحدث التناقض القائم مبدئيا بين الفهم المستقروالرؤية الحسية من جهة ، والفهم التكويني والتفسير السببي من جهة أخرى . وما يعنينا هنا محاولة تبيان المناهل القصوى للشخصية وأعراضها النفسية المرضية .

# ادولف هتلر

عرف عن هتلر أحد ملامح البرانويا من ناحية السيكوباثولوجية للهذاء . حيث يكون تعميق تحليل الصورة التي استقر عليها جهاز التفكير الهذائي في كل حالة ، لاكتشاف العلل والميكانيزمات الأساسية التي تحدد نوعه . ففي حالة هتلر نجد كأساس تحليلي للبرانويا ـ التعلق الشديد بالأم ، وما يقابل ذلك من كراهية شديدة ، وإن كانت مكبوتة ولاشعورية للأب . فإنه إزاء الاحباط الدائم المستمرمنذ الطفولة المبكرة لدوافع كراهية الأب العدوانية القوية لم يجد هتلر من سبيل غير تحمل المعاناة الداخلية القاسية ، وتصريف مشاعر الكراهية ـ لا على شخص الأب بالضرورة كموضع كراهيته بالذات ـ بل لا شعوريا وبميكانيزم الكبت والهستيريا على الجميع دون تفريق . فكلما كان الانفجار أعم كان تخفيف التوتر أكبر .

إن تحليل نفسية هتلر يكشف لنا عن جنون من اضطهاد أمه على يد أبيه . وبديل الأم في جهاز هذيانه العقلي ـ وكما نستطيع أن نتبين في كتابه (كفاحي) ـ الفتاة الألمانية الآرية الشقراء . وبديل الأب الرمزي هو اليهود . ولقد انتهى فيما يبدو إلى أن يقسم عقله الإنسانية بأجمعها إلى قسمين متعارضين بينهما خط فاصل لايمكن محوه : في ناحية من هذا الخط يوجد الناس الطيبون البرءاء أمثاله هو نفسه وزملاؤه النازيون ـ وعموما الجنس الألماني الآري كله ، وفي الناحية الأخرى من الخط وبتضاد أشبه بتضاد الأبيض والأسود يوجد أشرار الناس وشياطينهم الذين ليسوا من جنسه أو في اتفاق معه .

وقضى هتلر حياته كلها بتكوينه النفسي هذا يحمي أمه ( الكبرى ) التي توحد بها واحتضن قضيتها من غدر أبيه وشيطانيته . وبلغ تعلقه ببلاده وحبه

لها وبطولته في سبيلها حد الحرمان من الحياة الجنسية . كما اتجه مصرف كراهيته واعتداءاته بكل ما أوتي من قوة إلى من يقف في سبيل رغباته أو يقيد حريتها . ويرمز الموقف كله في نظر التحليل النفسي إلى رغبة مكبوتة في الانتقام من الأب الشرير الذي يتمثله في خيالاته الطفلية ، وكأنه يعامل الأم الطيبة الرءوم بطريقة شيطانية .

إن الدولة في محيط السياسة والقانون الدولي تمثل في وجداناتنا أمنا الكبرى ، والوطن في شعورنا الذي يرضعنا لبان خيراته . ولعل الحال لم تكن لتختلف كثيرا لو أننا رمزنا للوطن بالأب ، ولكن اللاشعور هو الذي هدى الإنسانية إلى هذه الرمزية . ونتيجة لهذا ، فإن أي شخص تكون سيكولوجيته من نوع هتلر يرى في إهانة الأم الكبرى جريمة لا تغتفر ، وفي كل من يعتدي عليها بديلا للأب الشرير لا رحمة معه ولا هوادة في عقابه والانتقام منه . والذين مزقوا الامبراطورية الألمانية في معاهدة فرساي هم في نظره لاشك من هؤلاء .

وليس من جدال في أنه من الممكن تفسير مثل هذا السلوك تفسيرا واقعيا بارجاعه إلى عوامل سيكولوجية ، لا شعورية . فالأطباء العقليون يعرفون أن ملكة الاستدلال أو التعقل كثيرا ما لا تكون غير خادم للمستويات اللاشعورية العميقة للذهن . وأنها قلما تعدم تبريرا أو تعليلا للاستمرار في فكرة أو فعل يرد في سلوكها . وهكذا يجد الكثير من الرضى أسباباً معقولة لكل أفعالهم الانتقامية اللاعقلية ، ويجد هتلر ما يسوغ هجوم الأمة الألمانية والجنس الآري على بقية الأمم والأجناس . فالراجح أن مرض هتلر النفسي هو البرانويا مع ميول مرضية أخرى لا شك أن من بينها الهستيريا. ومن السهل التعرف على البرانوئي داخل مصحات الأمراض العقلية وخارجها من مظاهر سلوكه هذه التي تختفي دوافعها ، ولكن حالات أخرى تستدعي دراسة أعمق للدوافع حتى يمكن اكتشاف علتها الهذائية .

بعيدا عن هتلر ونفسيته : من المهم على المرء أن يتعرف على البرانويين من الناس حتى في أخف حالات مرضهم التي تخفف من شدة التعصب فيها

والجمود وعدم القابلية للاقتناع أو التساهل ، عقولهم المتسامحة المرنة أحيانا ، والذين نجدهم غالبا بين قادة الجماعات وزعماء الطوائف الدينية والمذهبية،بل ورؤساء الدول والحكام ، لأن التعرف على ذوي الاستعداد البرانوئي يفيدنا في تجنب الحروب المقبلة ومستقبل الجنس البشري .

☆ ☆ ☆
☆ ☆
☆

# اسكندر الأكبر

بدّل الأسكندر الأكبر ويوليوس قيصر ، مجرى التاريخ بأسره بفتوحاتهم . ولو لم يوجد الأسكندر ، لما كتب الأنجيل بالأغريقية ، ولما أمكن التبشير بالنصرانية في الأمبراطورية الرومانية . لكن اسكندر الأكبر تمادى في جبروته وعظمته حتى ادعى أنه آلهة بعد عودته من فارس ، وحض الناس على عبادته والسجود له ، وزعم أن نسبته إلى فيليب المقدوني والده ، لا صحة لها على الأطلاق . ولما جرح في القتال أخفى جراحه ، وأراد أن يلقي نفسه في نهر الفرات خلسة ، حتى يقال أنه من سلالة الآلهة ، وأنه لم يمت بل صعد إلى السماء حيا كسائر الآلهة . وقد أطلق شعره وأرسله فوق عنقه تقليدا للأسد الضرغام . وكان إذا جرؤ أحد على مخالفته زأر زئيرا انتفض له أقرب المقربين اليه !

وفي التحليل النفسي تبين لنا أن شخصية الأسكندر الأكبر مصابة بهوس العظمة ، مع انطواء هذه الشخصية على عوامل الشر في سبيل هدفها . وحين ننظر إلى الشر من الوجهة الطبية على أنه وظيفة فرضية ، لايكون الشر مجرد انتفاء الخير . فكل عقدة هي مركز نشاط انفعالي لاحظنا آثاره المرضية في العصاب والأمراض الخلقية ، وهي خطر دائب يهدد الذات ، لأنها قد تنشط في أي لحظة . فإذا بقيت الزهرة القديمة ، وإذ أبى الفينكس أن يموت ، أصبحت عائقا بيننا دون التقدم ، وهي من ثمة شر إيجابي .

وقد صور الشر بشيطان ، وليس هذا التصوير بعيدا عن الطبيعة ، من حيث أن العقد المكبوتة قد تستحوذ على الشخصية كلها وتضطرها الى مسلك شرير . وفي هذه الظروف يشعر المريض بأنه في حوزة شخصية أخرى ( كما يحدث في كثير من حالات الجنون ) أو في حوزة الشيطان .

إن مبدأ كل الاندفاعات الألية يجب أن تعد خيرا لا يتعارض مع فكرة الشر كقوة إيجابية,ولكنه يتعارض مع الرأي القائل بأن هناك رذائل أو انحرافات تورث . فلا أحـد منـا يولد بنزعات شريرة ، وإنما تصبح النزعات الغريزية انحرافات إذا أسيء استخدامها .

فالرذائل في جوهرها إن هي إلا إستخدام منحرف لغرائز قيمة ، وعلاج الشر لايكون باستئصالها بل بتوجيهها إلى الاستعمالات الصائبة . وعند الطبيب النفساني أنه ليس ثمة رذائل بذاتها ، إنما هناك إندفاعات منحرفة إذا انتزعت من علائقها المرضية أمكن جعلها فضائل أيجابية .

أما بالنسبة لهوس العظمة عند الأسكندر الأكبر فيتبدى من أنه مقتنع بقـوته الجسدية النادرة وجماله الخارق . وانه منحدر من أكثر العائلات شهرة ويمت بصلة القربى إلى سائر ملوك أوربا وملوك البلدان الأخرى . فهو عبقري صاحب مجد ، يتعاطى الأعمال الكثيرة ، ويأمر ملايين الناس ، واثق من أنه انسان أعلى ، نبي ، واحد من أكبر الجهابذة في جميع العصور . يصيب الاغماء جميع النساء عند قدميه ، ويتمتع بسائر المزايا ، ويملك كل الالقاب والصلات الرفيعة ، وله الثروة كلها .

كان الاسكنـدر الأكـبر ، وهـو في اغـترابـه العقلي ، يلبس خرقا تمثل الشخصية التي كوّنها في ذهنـــه ، ويلبس زيا غريبـا عن اللبـاس والقبعـات والشارات والأوسمة .

تجدر الأشارة هنا الى ان صورة الأسكندر هذا التي تمثل الأغتراب العقلي صورة كاريكاتورية كثيرة الشيوع لملايين الطامعين والمصابين بالذهان الهذائي الخفيف الذين يتكاثرون على سطح المعمورة ؟ وهذا الأغتراب العقلي صورة كاريكاتورية لجميع أولئك الذين يريدون أن يكونوا أرفع منزلة .

وإذا كان البعض من عامة الناس يصابون بهوس العظمة ، وهم يعبرون عن قوتهم وعن ألقابهم بالكلام ، بل وبلباسهم أو أفعالهم كذلك ، فإن المصيبة تكون أعظم حينما يتحول بعض الحكام إلى نماذج تمارس جنونها على شعبها ، كما كان الحال مع اسكندر الأكبر من قومه .

# اميل زولا

يعتــبر اميل زولا رائـد المـذهب الطبعي وعلمه الأكبر . وقد دعا الى تحطيم ما فوق الطبعي ميتافيزيقيا وما ليس عقليا ، ودعا الى التمسك التام بالتحليل النفسي· واعـطائه الأهمية اللائقة لنستطيع ارجاع الظواهر الحسية والخلقية الى اسبابها الحقيقية ، وممن ناصر هذا المذهب خارج فرنسا والمانيا ببعض ما كتبا تشيخوف وتولستوي ومن انكلترا جورج كسنك .

كان أميل زولا مصاباً بمرض عصبي اضطرابي ، فكان لا يرتاح باله الا إذا قام بعد مصابيح الشوارع ونوافذها وأبوابها ، وكان يستبشر بالرقم ٣ وترتعد فرائصه خوفا إذا ما صادف الرقم ١٧ ، إذ كان هذا الرقم في اعتقاده نذير الكارثة . ومن غرائب أطواره أنه كان شديد العناية بحاسة الشم فقد كان يغلق باب غرفته ويقضي ساعات كاملة يحاول فيها أن يكتشف بحاسة شمه ألوان الطعام التي تطهى في المطبخ من رائحتها .

حالة زولا هي تسلط وساوس وأفعال ثبتت في ذهنه فلم يستطع التخلص منها بأية عملية شعورية ، أفكار وأفعال هي ـ من وجهة نظر العقل الشعوري ـ لادخـل للمنـطق أو التعقل فيها ، ومن حيث الحياة العملية واضح أنها غير مطلوبـة أو مرغوب فيها . ويعاني تسلط الأفكار والأفعال الناس جميعا سواء السوى والمريض ، ولكن التسلط لايصبح أمرا عاديا إلا عندما لا يؤثر بدرجة كبيرة في كفاية أداء الوظائف العقلية للفرد ، بمعنى ألا يكون لفترة طويلة ، وتأثيره في سلامة التفكير تأثيرا جزئيا ـ تأثيرا يقل أو يزول بعد فترة قصيرة أو طويلة من الزمن فيتركز الاهتمام على أشياء أخرى .

إلا أن ثمة وساوس مرضية تتحكم تماما في الوظائف الشعورية وتراود المريض بصفة مستمرة مجبرة إياه على الأعتقاد أو السلوك بطريقة معينة كيما تخف وطأتها أو إلحاحها على ذهنه . وثمة أيضا أفعال قهرية متسلطة هي سلوك يرجع الى دوافع ونزوات لا يمكن مقاومتها .

كما أن عامل القهر أو التسلط في الأفكار والأنفعال لايكون له معنى مرضي إذا كانت الأفعال المرضية موضع رضا المريض واستحسانه ـ ولا يفعلها كرها منه . وهذا هو شرط التسلط القهري الذي يجمع عليه الأطباء العقليون اليوم . كما أن من المألوف أن يجيء تسلط الأفعال نتيجة تسلط الأفكار ، فليس ثمة فعل انحصاري لا يستند الى فكرة متسلطة واعتقاد يستحوذ على الذهن .

تقسم الظواهر التسلطية الى ثلاثة أنواع : تسلط أفكار ( أى وساوس ) وتسلط أفعال ( أى قهر ) وعصاب تسلط الأفكار والأفعال معا . فالنوع الأول هو الأفكار التي تملك ذهن المريض وهو يعتبرها غريبة عن ذاته ويحاول عبثا التخلص منها . والنوع الثاني هو هذه الأفعال التي تفرض نفسها على المريض كتصرفات يقوم بها باستسلام لاقبل له بمقاومته . قد يعتبر المريض هذه الأفعال غير منطقية أو لامعنى لها ، ولكنه لايجد مناصا من الخضوع لسلطانها بسبب خوفه أن تقع كارثة محققة اذا امتنع عن إتيانها . وأخيرا فان عصاب تسلط الأفكار والأفعال قوامه تركيب معقد من الوسوسة والقهر كليهما .

وبما ان الأفعال المتسلطة هي في العادة نتيجة تسلط أفكار معينة ، فان كثيرا ما يتدخل الاثنان في مرض واحد هو النوع عند اشتيكل كما انه كثيرا ما يستعمل اللفظان احدهما بدل الآخر تجاوزا رغم ان من الأصوب قصر كلمة وسوسة أو حصر نفسي على الحالات التي يغلب فيها تسلط فكرة على الذهن ، وقصر اسم عصاب القهر على الحالات التي يغلب فيها اتيان أفكار لايمكن مقاومتها مهما كان يساندها من أفكار متسلطة ،بالرغم من أن تسلط الأفكار ذاته من الناحية الأخرى هو نوع من القهر الفكري .

اننا نجمل اعراض زولا المرضية النفسية فيما يلي :

سيل لا يحد من ارتباطات الأفكار لم يقدرمعه على التحكم في تسلسل أفكاره خصوصا عندما أصبح مرضياً . مع رغبته في تحقيق التركيز الكامل على فكرة خاصة مع استبعاد ما عداها من أفكار . ولما كان ذلك مستحيلا بالنسبة له ، فإن صراعا دائما كان يصاحب عملية تفكيره . وهو في ذلك كان يحاول اضفاء المعقولية على صراعاته . فكل مشاكله وصراعاته كان يحاول التعبير عنها بطريقة تبريرية عقلية حتى تبدو منفصلة عن اسسها الأنفعالية . وفي هذا يرتبط اخفاء النغمات الأنفعالية ، فكلما صاحب الأفكار المتسلطة حركات انفعالية بدت نغماتها متكلفة ومتناقضة ، وتلقى اقل المشاكل اهمية أقوى توكيد انفعالي .

ثمة تحليل آخر لحالة اميل زولا تقول انه كان مصابا بالعصاب على شكل فكرة او خاطر ملح لايفتأ يتراءى للمريض ، وهو ان تسيطر على المريض فكرة ان كل شيء في الحياة يدعو الى الشك او ان جسمه دائما تعب المخ .

او يبدو كاتجاه وجداني خاص نحو امر من الامور لايملك المريض مغالبته كالخوف من الظلام أو من الارقام أو الاماكن المغلقة .

بيد ان مرض زولا كان من طرف العصاب القهري بحيث كان عنده دافع قوي يدفعه الى اتيان عمل معين كتعداد كل ما يقع تحت يده من أشياء كعد مصابيح الشوارع ونوافذها وأبوابها .

# أوغست كونت

ولد اوغست كونت في مدينة مونبلييه عام ١٧٩٨ وتوفي في عام ١٨٥٧ ، بدأت مشاكله مع الحياة حين تزعم حركة عصيان قام بها الطلاب ، وكان من نتيجتها ان طرد وبقية زملائه في نفس السنة الدراسية ، وفي عام ١٨٢٥ تزوج من كارولين ماسان التي التقى بها لأول مرة حينما كان يفيد من خدماتها وهي بغي .

أخذ في العام ١٨٢٦ بالقاء سلسلة من المحاضرات العامة في ( فلسفته الوضعية ) وكان يتابع هذه المحاضرات بعض اقطاب العلم ، لكن كونت اضطر الى الانقطاع عن القاء هذه المحاضرات بسبب مرضه العقلي . وفي العام التالي حاول ان ينتحر غرقا في نهر السين، لكنه عاد في عام ١٨٢٩ فاستأنف محاضراته العامة التي نشرت في ستة أجزاء.وفي العام ١٨٤٢ انفصل عن زوجته . وفي عام ١٨٤٤ تعرف كونت بـ كلوتيلد دي فو التي كان زوجها متخفيا من الشرطة في بلجيكا ، وما ان عرفها حتى هام بها حبا ، لكنها لم تمنحه إلا امتيازات الصداقة ، ولقد زعم كونت انه تعلم على يديها أهمية اخضاع العقل للقلب . واتخذت كتاباته بعد موتها في عام ١٨٤٦ طابعا جديداً لا ليتجدد عن طريق العلوم الطبعية والاجتماعية وبقوة العلماء الروحية فحسب ، ولكن عن طريق دين دنيوي هو دين الانسانية ، وهو الدين الذي كان من المفروض أن يكون كونت كاهنه الاكبر .

وفي كتابات كونت الأخيرة خليط غريب من اللغو والبصيرة النافذة، فهناك من ناحية دين الانسانية بما في ذلك من تفاصيل عبادة الكائن الأعظم، وقد رمز له كونت بصورة الانثى ، في معابد تحتوى تماثيل نصفية لمن أحسنوا إلى

الانسـانية، وهنـاك التقويم الوضعي بما فيه من شهور سميت بأسماء موسى وأرخميدس وفـريدريك الثـاني، وبـما يحتوى من أيام يحتفل فيها بالمشاهيرمن الـرجال، وقد ضمنهم كونت ـ من قبيل العرفان بالجميل ـ أولئك الاصدقاء الذين سعوا لصالحه دون جدوى بصدد منصب الاستاذية بمدرسة الفنون التطبيقية.

لم يكن أوغست كونت شبه مجنون، وانما قضى اكثر عمره مجنوناً فعلاً، وكان يضع مؤلفاته الشهيرة في فترات الصفاء. ومن غريب أطواره حتى في فترات الصفاء انه كان يكتب رسائل لاتقرأ، لتنافر معانيها وعدم انسجام تراكيبها. وكثيراً ماكان يغادر منزله ولايعود إلا بعد أيام ولايعرف هو ولاغيره أين كان، وكان خلال تناول الطعام يطعن المائدة بالسكين بشدة لغير ماسبب.

يمكن تصنيف مرض كونت في خانة القلق الهستيري. فالقلق يكاد أن يكون مادة مشتركة في كافة الأعراض العصابية تقريباً. إذ أنه توجد علاقة بين الاستجابة العادية بالخوف وأي موقف خطر خارجي. كما يوجد رد فعل بالقلق لأي خطر داخلي أو نفسي. وقد استطاع فرويد أن يميز بوضوح داخل مجموعة الأمراض النفسية، التي أطلق عليها بعض المعالجين النفسيين اسم نورستانيا والبعض الآخـر اسم سيكـاستانيا، بين ما اسماه أمراض العصاب الحاضرة أو الـراهنـة وأمـراض العصاب النفسية أو التحويلية: الأولى ترجع إلى عوامل بسمية معينة في مجرى الحياة الجنسية، والثانية ترجع إلى عوامل نفسية انقطعت من مجرى الحياة ولكن يمكن الرجوع إليها في الخبرات الانفعالية الطفلية.

والقلق الهستيري هو غير عصاب القلق، والانهيار العصبي أو الهجاس السـوداوي من ناحية وغـير الهستيريا التحويلية. والهستيريا الاندفاعية التي يندفع أصحابها في نوبات انفعالية من الضحك أو البكاء ـ إذ أن الكثيرين من الكتـاب يرون أن الهستيريا ـ وبالأحرى القلق والخوف ـ قلما توجد في حالة تجرد ـ أي كمرض قائم بذاته، بل إنها تتداخل أو تتسبب في حدوث الكثير من الأمراض الاخرى.

إن هستيريا القلق تتميز بأنها نمط من الاستجابة البدائية يكاد يكون أكثر أنواع العصاب شيوعا في الطفولة، وأهم أعراضه نوع معين من الخوف النـاشيء عن أشياء ومـواقف مغرية للطفل، ولكنها محظورة عليه أو مهددة بالعقاب. والميكانيزم الدفاعي لهستيريا القلق إما أن يكون عن طريق القلق ذاته الذي يحذر الطفل أو يحذر الأنا عند الطفل كي يتجنب الموقف، وإما عن طريق كبت الدافع وتنمية بديل أو بدائل للخوف الاصلي، أو باسقاط خطر داخلي غريزي على الخطر الخارجي الادراكي، وهذا هو اكثر الأنواع شيوعاً من حيث الابدال في هستيريا القلق، وأخيرا بالنكوص إلى الطفولة للتخلص من رغبات عقدة أوديبوس.

☆ ☆ ☆ ☆

# الفريد دي موسييه

كانت حياة الفريد دي موسييه خالية من النظام والاعتدال. فمع ادمانه الخمر والمخدرات، كان له من الحوادث الغرامية والفضائح الجنسية، مالا يتفق والرجل المالك لقواه العقلية. وقد سف في مهازله إلى أعمق القرارات، حتى انهارت قواه البدنية والعقلية.

إن ادمان الخمر والمخدرات محاولة للفرار من التبعة وإخماد الشعور بالواقع ومحاولة تجاهل المشكلة ونسيانها. ومن المعلوم أن هذه المواد السامة تثير حالات نفسية شبيهة بحالات أحلام اليقظة. بل هي من العوامل التي تبعث الأخيلة وتخلق عالما وهميا من الاشباح ومن الصور التي قد تكون سارة. كما أنها قد تكون مزعجة مرعبة، ولكنها في كلتا الحالتين تثير في نفس المدمن متعة شاذة. وتكون الصور المرعبة ممتعة لأنها بما تثيره من خوف تجعل الشخص يشعر بشيء من الشجاعة التي تعوزه لمواجهة المخاوف الحقيقية، غير أنها شجاعة وهمية مزجاة.

ترى هل مشكلة الفريد دي موسييه هي في ادمانه على الشراب؟ أم أن ادمانه ليس إلا عرضا لمشكلته الحقيقية وهي فشله في أن يحيا حياة ذات معنى؟ هل يستطيع انسان ان يحيا على هذه الدرجة من الانعزال عن نفسه، وبهذا القدر الكبير من الكراهية، وهذا القدر الضئيل من الحب، دون ان يشعر بالدونية، ودون أن يصيبه الاضطراب؟ لاشك أن هناك كثيراً من الناس يستطيعون أن يفعلوا ذلك دون أن تبدو عليهم أية أعراض، ودون الشعور بأي خلل. وتبدأ مشاكلهم حين يستغرقهم العمل، وحين يكونون على انفراد. بيد أنهم يفلحون في استخدام أي عدد من سبل الهرب من الذات التي تتيحها حضارتنا لاسكات أي مظهر يعبر عن عدم رضاهم. أما هؤلاء الذين تبدو

عليهم أعراض صريحة. فإن قواهم الانسانية لم تخنق تماماً. ثمة شيء يحتج فيهم، وبالتالي يشير إلى وجود صراع. وهم ليسوا أشد مرضا من أولئك الذين نجحوا في تكيفهم تمام النجاح، بل على العكس، أنهم أكثر صحة بمعنى أنساني. ومن هذا الموقف الأخير لا ننظر إلى الأعراض على أنها عدو يجب أن ينهزم، بل على النقيض من ذلك ننظر إليه بوصفه صديقاً يشير الينا بأن ثمة شيئاً لا يسير على مايرام. والمريض يسعى - على نحو لاشعوري - لطريقة أكثر انسانية في الحياة. وليست مشكلته هي ادمان الشراب، بل الاخفاق المعنوي. ولا يمكن أن يتم شفاؤه على أساس هذا العرض الظاهر. فلو انه كف عن الشراب دون أن يغير شيئاً آخر في فهم حياته، فسوف يظل قلقاً متوتراً، وسيجد نفسه مدفوعاً إلى مزيد من التنافس النشط، ومن المحتمل أن يظهر عليه ذات يوم عرض آخر يعبر عن عدم رضاه. وما يحتاج إليه هو شخص يستطيع أن يساعده على اماطة اللثام عن أسباب هذا التبديد لأفضل مافيه من قوى انسانية، وبالتالي لاستعادة استخدام هذه القوى.

إن مشكلة الذنب في عملية التحليل النفسي لها مدلولها. فذي مريض كان يشعر بالذنب لأنه لم يكن محب أبويه كما ينبغي، ولفشله في القيام بعمله على نحو مرض، أو لأنه جرح مشاعر شخص ما. وهذا الشعور بالذنب يطغى عادة على عقـول بعض المـرضى، فهم يتصرفـون باحسـاس من الـدونية والفسـوق، وكثـيراً مايصـاحب هذا رغبـة شعـورية أو لاشعورية من [illegible] النفس. وليس من العسير عادة أن نكتشف أن هذا الشعور المستبد بالذنب [illegible] من توجيه تسلطي. وكـان من الممكن أن يمنـح هؤلاء المرضى تعبيراً [illegible] لشعورهم لو أنهم قالوا أنهم خائفون، بدلاً من قولهم انهم يشعرون بالذنب [illegible] خائفون من العقاب، أو أنهم لم يعودوا محبوبين لدى تلك السلطات [illegible] عليها راية العصيان، وهذا أكثر حدوثاً. وسيدرك مثل هذا المريض [illegible] اثنـاء عملية التحليل النفسي أن وراء احسـاسـه التسلطي بالذنب [illegible] شعور بالذنب منبثق من صوته الخاص [illegible] بالمعنى الانساني.

فلنفرض أن مريضاً يشعر بالذنب لأنه يحيا حياة مزدوجة، حينئذ ستكون الخطوة الأولى في تحليل هذا الشعور بالذنب هي اكتشاف أنه يشعر حقاً بالخوف من أن يفتضح أمره، وأن ينتقد أبواه، أو زوجته، أو الرأي العام - أو باختصار أي شخص يمثل السلطة في نظره. وفي هذه الحالة وحدها سيكون قادراً على ادراك أن وراء هذا الشعور التسلطي، هناك شعور آخر. وسيدرك أن (غرامياته) هي في حقيقة الأمر تعبيرات عن خوفه من الحب، من عجزه عن أن يحب أي شخص كائناً من كان، أو أن يلتزم بأية علاقة حميمة مسؤولة. وسيدرك ان خطيئته انما موجهة ضد نفسه، خطيئته تبديد قدرته على الحب.

# بطرس الأكبر

يشك كثيراً في أن بطل الشمال، بطرس الأكبر، قيصر روسيا، مكتمل القوى العقلية. فقد ذبح ابنه وولي عهده، بدعوى انه كان مستهتراً فخشي أن يفسد بعد موته ماأتاه من أعمال الاصلاح في حياته.

وبادىء ذي بدء نرى أن هناك تفسيرات نفسانية رغم اهميتها لاتلقي اضواء كاشفة على الموضوع.حقاً لامجال للشك في ان بعض شخصيات الأفراد تقوم على طموح لاوسيلة للكبح، وعلى تعطش لتسلم السلطة تحت لون من الطغيان والكبرياء والتعجرف، بالاضافة لبعض المهارة السياسية وبعض الظروف المواتية والأحوال الملائمة. إلا أن نسبة هؤلاء الافراد، اذا مانظر إلى ظهورهم من خلال تشابه الظروف وتماثل الأحوال، تظل تقريباً ثابتة في مختلف المجتمعات. وإلا، لماذا لايتسلم اي فرد طاغية الحكم خلال عصور بكاملها، بينما يتعدد الطغاة في عصور اخرى؟ والجواب على ذلك ان هناك موجات من اوبئة الحكم الدكتاتوري خلال فترات معينة من التاريخ. ويمكن الاعتماد على الجواب المتقدم الذكر بشأن النظريات القائمة على مبدأ التحليل النفسي والتي تفسر منشأ الدكتاتوريات عن طريق مايمكن تسميته (بعقد الحرمان)، والواقع ان اغلب الطغاة كانوا قصيري القامة (قيصر، نابليون،هتلر)، واكثرهم عاش طفولة معذبة، ومراهقة صعبة، الأمر الذي من شأنه ان يمهد السبيل لخضوع شخصيته إلى مجموعة من العقد.

يشبه وضع بطرس الأكبر ماقام به ج. ألي ومدرسته حين درسوا سيكولوجيا الدواجن، فأتاحت له ملاحظات غريبة حول المراتب التي تسود فيها. قبل كل شيء هناك مرتبة ضربات المنقار، ومظهرها الرئيسي هو

اعتـدائي : فبعض الأفراد لهم الحق في ضرب آخرين دون تقابل. انه المعادل الحيواني لـ (حق التأديب) الـذي، في الواقع وبأشكال دقيقة، يظل مظهراً اساسياً للمراتب البشرية.

ومن دراسة حياة بطرس الأكبر على ضوء ماذكره (بلولير) يتبين اثر التوجيه الجديد الذي يعطيه لفكرة الاضطراب العقلي، بحيث يوّسع بصورة محسوسة نطاقـات هذه الاصـابـة. فهي تتعـدى الآن حدود الاختلال العقلي الظاهر وتـدخـل ميدان الطباع المعوجّة. وهي تفعل ذلك تحت اسم (اختلال عقلي خفي)، الذي هو متوفر في الواقع، كما يقول بلولير، أكثر من (الاختلال العقلي الظاهر)، الذي نراه في مأوى المجانين.

اذن يمكن تأويل مرض هذا الـدكتـاتور باسم (اختلال عقلي)، وهو مرض مخفف حقـاً، انـما مرض مع ذلـك. إلا اننـا، في كثير من الاحيان، لانلاحظ أصغر اثر للتطور لدى المختلين اختلالاً خفياً. ان حالتهم لاتتفاقم ويموتون كما كانوا في أي وقت من حياتهم. وفي الحقيقة تظل اللوحة مستقرة وتتلخص بسلوك خاص. ففي هذه الحـالات مامن مسألة مرضية. ان فكرة عجز وراثي تبدو هي الفضلى. فبابتعادنا هكذا عن فكرة مرض متطور، نقترب أكثر فأكثر من فكرة تكوين مرضي. إن الاختلال العقلي الخفي الذي يقول به (بلولير) يخلي المكان، جزئياً على الأقل، (للمؤهل للاختلال) الذي ينادي به (كريتشمر)، وربما كان مزاج داء الشهرة لصاحب الترجمة ليس متفاقمًا بشكل ذهان.

ولكن ذبحه لابنه، ربما كان نتيجة اضطراب اصاب حياته الانفعالية والعاطفية والعقلية، ووصل هذا الاضطراب للحدود القصوى في ذبح ابنه، وهذا مايجعله غير مسؤولاً اذا كان مريضاً ذهانياً. ان الذهانيين بشر فقدوا صلتهم بالـواقـع وتحـولـوا إلى مجانـين بالمعنى القانوني. ويفترض بالطبع ان الاختلال الذي يصيب الذهاني يحرمه من الاستبصار بحالته.

يعتبر أحد التفسيرات أن الشذوذ في السلوك هو نقيض العظمة القائدة

الملهمة . والعظمة هذه صفة تميز الفرد عن بقية المجتمع لأن ذلك الفرد يبدو وكأن الله قد حباه بقدرات تفوق قدرات الانسان . وعلى ذلك يذهب التفسير الى القول بأنه بينما هناك مشاهير في المجتمع يرتفعون بقدراتهم فوق الآخرين ، هنـاك أيضـاً أفـراد يكون سلوكهم شاذاً ويكونون في الطرف النقيض لطرف المشاهير ، أي ادنى من بقية اعضاء المجتمع ، أو كما هو واقع الحال ، في مرتبة دون مستوى بني الانسان .ولعل اوضح مثال على ذلك نظرة المجتمع إلى المصابين بأمراض عقلية .

بعض المحللين يذهبون إلى القول انه لايجوز ان نقف ببطرس الأكبر عند قصوره النفسي وما قام به من اعمال شاذة .

والبعض الآخر ينفي انتصاراته وانجازاته ويضع امراضه النفسية وسلوكه الشاذ في المقدمة؟

# بلزاك

يبدو شذوذ بلزاك في مؤلفاته جليا. على أن حياته الخاصة لاتترك مجالاً للشك في عدم اتزانه، فمن ذلك انه كان يكثر من تغيير مسكنه ويحرص على ألا يعـرف أحد من الناس مكان وجوده، وكان إلى ذلك شديد الأنفة والكبرياء فأطلق على نفسه لقب نابليون الأدب.

لقد كان بلزاك مصاباً بالذهان الهذائي، وكان متكبر دون حدود، كبرا يحجبه تواضع متكلف. انه يعتقد بانه الذكاء التام، ويعزو لنفسه سائر المزايا وجميع ضروب الوضوح وكل الفضائل. انه مطالب يقتضي من الناس الاحترام الـذي يدينـون به الى المشاهير، محشو بالانانية التي تختفي تحت اقنعة الغيرية والطيبة والعدالة. أما في صميمه، فالعداوة والحسد قائمان. يضاف إلى هذا أن الشعور القوي بالدونية يستحوذ عليه غالباً، ويعطي لكماله أهمية مطلقة على الرغم من أنه يعتقد عكس ذلك. انه متحمس بصورة اعتباطية، ولكنه يهمل كل شيء من اجل بعض السخافات وكانت أحكام بلزاك خاطئة ومتميزة، عنيدة، مكابرة، حقودة، اذا مس أحد الناس حساسيته التي تتصف، مع ذلك، بانها غريبة.

والمصـاب بالـذهـان الهـذائي شخص لايعرف المرء باي رجل يرقص معه.. فلا مجال للتسامح لديه الا عندما يمثل التسامح تمثيلاً يعزز مظهر عظمة النفس لديه. وقد يشغل المصابون بالذهان الهذائي أحياناً المراكز الاجتماعية الرفيعة جداً. وعندئذ يتجلى تزمتهم ولزوم احترام آرائهم احتراماً مطلقاً. وبما أن المصاب بالذهان الهذائي انفعالي بافراط، فهو كريم باندفاع. انه يفرض طيبته وكرمه. مع احتمال أن ينقلب انقلاباً تاماً، ولسبب تافه، ضد من يقدم

له العون. . انه لايتوصل إلى أن يتفاهم مع أي شخص كان، الا عندما يعتقد بأن الآخرين لن يعترفون له بالتفوق. وهو يظن غالباً بأنه مضطهد لان وضوحه وذكاءه يجعلانه خطراً، وأن من المصلحة إذن أن يكون مستبعداً.

يتصف المصابون بالذهان الهذائي بالحذر المتعالي، المسيطر والمحتقر. ومن البدهي أنهم غير واعين لزيف سائر هذه المظاهرالتي هم بحاجة شديدة إلى تصديقها. ويكذب المصاب بالذهان الهذائي باستمرار. فهو يتخيل اوضاعاً يتفوق فيها، ويقوم فيها بالدور الرائع. . . الخ. انه يوحي بمهارة، بعلاقات رفيعة خيالية على وجه صرف، وقلما يتلاءم معها ذلك.

إن التسامي بالنفس يجر وراءه دائمًا الشعور بتمجيدها الذي من شأنه أن يزوّد صاحبه بما هو شديد الحاجة إليه من الاحساس بأهميته والتسامي على الآخرين والسيطرة عليهم.

ويبنى كل شخص صورته الشخصية المثالية من مواد تجاربه الخاصة وخيالاته الأولى وحاجاته المعينة، كذلك من قدراته الموهوبة. وقد تصل الدرجة بالشخص الى أن يتقمص صورته المثالية المتكاملة التي لاتظل صورة في خياله يحتفظ بها في نفسه، بل سرعان مايصبح هو هذه الصورة ـ دون أن يشعر ـ أي أن الصورة المثالية تصبح شخصاً مثالياً أو ذاتاً (مثالية) وهذه الذات المثالية تصبح أكثر حقيقة في نظره من ذاته الأصلية لا لأنها تستهويه أكثر فحسب، بل لأنها تحقق جميع حاجاته الدقيقة.

ان هذا الانتقال في مركز الجاذبية هو في الواقع عملية داخلية محضة، فالتغير في أساسه ينشأ في شعور الانسان بنفسه، فهو عملية عجيبة وشخصية محضة. وهذا الانتقال يحدث في الانسان لأن ذاته الحقيقية قد أصبحت غير واضحة، بينما يأخذ هو في الابتعاد عنها من اجل الذات المثالية التي أخذت تمثل له حقيقته كما هو، أو قدرته الكامنة كما هي، ماذا يستطيع أن يكونه ومايجب أن يكون عليه، أي أن هذه الذات تصبح المرآة التي يتطلع فيها الى دخيلة نفسه والقياس الذي يقيس به نفسه.

والتسامي بالنفس والبحث عن تمجيدها هو حل عصبي. والواقع أن الانسان الذي يندفع في طريق البحث عن العظمة أو تمجيد نفسه يتجاهل ذاته تماماً من اجل مصالحه ورغباته. كما أن هناك مقياساً آخر للشهرة هو عدم التمييز، فما دام ميل الانسان الحقيقي في متابعة الشيء لايهم، بل المهم هو أن يكون هو مركز الانتباه فيكون أذكاهم وأشهرهم ، سواء أكان الموقف يستلزم هذا أو لايستلزم، فالذي يهمه هو أن يخرج منتصراً في كل مناقشة بغض النظر عن الحقيقة والواقع.

إن البحث عن العظمة قد يصبح فكرة مسيطرة تلتهم صاحبها، وقد يكون لها صدى بعيد في صور الذعر والكآبة واليأس والغضب التي تغشى حياته كلها.

# بودلير

من اعـراض الجنـون عند بودلير أنه كان شديد الولع بالروائح الكريهة، خصوصاً الجيف، والأطعمة التي دب فيها الفساد. والأشياء العفنة، والروائح المنبعثة من الأمراض الخبيثة. ومن هذه الأعراض أنه صبغ شعره بلون أخضر فاقـع، وحـاول خنق حميه، وكـان مصـاباً بذلك النوع من المرض العصبي الاضطراري الهدام، الذي كان يضطره الى تخريب الأبنية وتكسير الزجاج، وتمزيق المناديل، وكتب عن نفسه في هذا الشأن انه كان يشعر بلذة لاتضارعها لذة للقيام بهذه الأعمال الاضطرارية الهدامة.

كان الصراع دائراً بين بودلير (الطفل) وبودلير (الرجل) على أشده في معظم حياته. فبودلير (الرجل) يتوجع كثيرا لسيطرة بودلير (الطفل). وقد كان يعـرف انـه شاذ وانـه قائم بتهديم ذاته، وليس هناك من يستطيع ان يحسن وصفـه، كوصفـه هو لنفسـه (أنـا انسـان مريض)، ويتابع قائلاً (انا انسان مريض، شنيع الطباع، والذنب في ذلك أبويّ، ومن جراهما يسرع البلى في نسجي، وتنحل عراي، وترث قواي، ذلكم شأن من يولد من أم في السابعة والعشرين وأب طاعن في السن، في الثانية والستين، فتأمل ياصاح. . خمسة وثلاثون عاماً بين الاثنين. . ).

تزوج الشيخ النـاصـع الشيب فرنسوا بودلير من كارولين دوفالي الفتاة اليتيمة، الحلوة الجذابة، وجاء بودلير الشاعر بعد ثلاثة أعوام من زواجها، وقد فقد أباه وهو في السادسة من عمره، فحزن عليه حزناً شديداً، وكان يقال له بأن اباه رجع إلى السماء ولم يمت.

تعلق هذا الفتى اليتيم بامه ايما تعلق، فقد شغف بها كثيراً وتصور انه اذ كانت تنحني لتمنحه قبلة المساء عند النوم، يكاد لايستقر في سريره حتى يرجع مرة ثانية ليتزود منها بقبلة.

ولما تزوجت من احد الضباط هاج وماج ورمى في يوم الزفاف بمفتاح غرفة أمه في البئر لكي يضيع فلا يعثر عليه. وبذلك أحس بالحرمان واليأس وبأنه لايستطيع . . ولذا فهو لايريد.

بداية انتحاره هو الشذوذ الذي بدأ هنا . .

اختـار حبيبة له اسمها سارة، أهم مواصفاتها انها كانت حولاء، وقد كانت سبباً لاصابته بالداء الخبيث. وكانت الثانية جان دوفال التي أوحت إليه بديوانه المعروف (زهرة الشر). وعلى حد وصفه لها فإنها تسير في غلائلها المتهللة اللماعة كأنها ترقص رقص الأفاعي على أطراف العصي أمام الحواة والكهان. في عينيها بريق جذاب كبريق المعادن السحرية، وفي جسدها يجتمع الملاك الطاهر بالحيوان القديم، فكل مافيها لمع وبريق.

اذا كان بودلير أحب من بهذه الأوصاف فبما توصف حالته . .

لقد عاش حالة شاذة طوال حياته وهو ينتقم وينتقم من نفسه تجاه ابتعاد امه عنه، وكانت نهاية حياته وهو في السادسة والأربعين من عمره.

إن ولع بودلير بالروائح الكريهة ربما كان مبعثه الرحلة الطويلة التي قام بها إلى الهند بحيث هيأت له السبيل ليدور حول القارة الأفريقية، فيجوب الهند ويمر بمدغشقر وجزيرتي موريشيوس وبوربون، فيأخذ من هذا الوهج الحار والروائح المنبعثة من الأمراض الخبيثة، وجثث المواطنين المطروحة هنا وهناك في الشوارع، نتيجة الأمراض الخبيثة والفتاكة، يوم كان الطب رهناً بالمشعوذين بعيداً بعـده العلمي عن متنـاول هؤلاء السكـان البسطاء المعدمين. فكانت الروائح تنتشر هنا وهناك، تزكم الأنوف، وتلوح بخطر الموت للسكان الآمنين.

ومن البدهي على من اعتاد على روائح الجيف ان يتحبب إليها إذا كان في وضـع نفسي مهزوز. فزواج أمه الشابة الجميلة جعله ينتقم من نفسه ايما انتقـام. . في مصاحبة النساء البشعات اللواتي ينفرمنهن عادة الرجال، حتى يزيد من انتقامه من نفسه، لعل حب الأم وعطف الأم يرجع اليه.

وما تكسيره للزجاج والأشياء سوى الانتقام نفسه الذي لايجيد التعبير عنه إلا بقيامه بهذه الأعمال غير المألوفة.

إن صبغه شعره باللون الأخضر الفاقع تمثيل لرؤاه للمرأة حين تتجمل، ولكن استعماله هذا اللون غير المألوف نوع من التشهير من المرأة ومن نفسه، ومن المصير الذي آل اليه، بين واقعه الاجتماعي المعذب، وبين كونه شاعراً كبيراً يسحر النساء بقوة شعره وسموه.

يحسن أن نشير الى أن تأكيد دراسة الأحوال الشاذة في الناحية الخلقية كثيراً مايؤدي دراسة الحالات المرضية في العلوم الطبيةوإلى اكتشاف نواح جديدة في العمليات السوية وإلى انماء معارفنا عنها. وخير مثل يضرب لذلك هو كشف وظيفة الغدة الدرقية. فقد ظل علم وظائف الأعضاء لايعرف شيئاً عن قيمتها حتى أمكن الاهتداء إليها بدراسة الأمراض التي يمكن إرجاعها إلى هذه الغدة، كالعَتَه والمِيكسديا، فكان لهذا الكشف فا ئدة كبيرة في علاج حالات ضعف العقل. وهكذا ساعدتنا دراسة الشواذ مساعدة كبيرة في معرفة الدوافع الأساسية للمسلك عند الأفراد السويين، وفي الاهتداء إلى الظروف الضرورية للصحة العقلية والقوة الخلقية، وبعد فإن أنواع الشذوذ في المسلك هي التي تجعل موضوع الخلقية موضوعاً ذا أهمية ما، كما أن قرب الانسان من الشذوذ أو بعده عنه يعتبر سبباً في كونه محل عناية واحترام.

إن حالة بودلير النفسية تجعلنا نرجع معظم تحليلاتنا عنه إلى الظروف البيئية الأولى، والحق أن البحث الحديث يشجعنا على الاعتقاد بأن حالات العُصاب النفسي والنقص الخلقي لاترجع إلى الوراثة ـ على الأقل بالنسبة لبودلير ـ وأنه اذا وجد منها مايعتبر موروثاً فإنه يكون نادراً، ويكون مع ذلك في حاجة الى أن يضطلع من يرون إرجاعه إلى الوراثة بإقامة الدليل على مايرون، وإنه لمن الغريب أن يُتّخَذ إحصاء الصفات الخلقية في اسرة ما دليلاً على ذلك.

وعصبية بودلير في تكسير مايتيسر له تأتي من ان التيار العصبي يواجه مقاومات معينة أثناء انتقاله في العصب، وبخاصة عند الوصلات العصبية. وتكون المقاومة شديدة عند بعض الناس، فيستغرق التيار وقتاً لاجتياز طريقه في العصب: ولهذا يكون الواحد من هؤلاء بطيء التفكي بلغمي المزاج، ولكنه

يكون ذا خلق متزن يَعتمد عليه، لايأتي الصغائر ولايجيء بالمعجزات. ونجد أصحاب المزاج العصبي، على العكس من هؤلاء، وصلاتهم العصبية مفتوحة ممهدة، فينتقل التيار بسرعة في ممرات العصب. أولئك العصبيون هم أصحاب التفكير السريع، الذي يحدث الانفعال عندهم مقترناً بالتفكير دائمًا. وهم حسّاسون، ولكنهم لايكونون دائمًا معقولين، قلقون، كأنما رُكب استعدادهم على زئبق، مضطربون في الخلق، ثوريون في النواحي السياسية. وهم خياليون سريعو الخاطر مندفعون، من أمثال (بودلير) و (وايلد). وكثيراً مايستحوذ أولئك العصبيون على الأتباع، ولكنهم لايستطيعون قيادتهم وتوجيههم. ومن ثم يتحول جمهور التابعين المجاهدين الى جمهور من المعجبين عُباد البطولة. هؤلاء العباقرة يكونون مُهيَئين للأمراض الخلقية والعصبية. ومن السهل أن تنقلب عبقريتهم إلى جنون، لأن كلا من العبقرية والجنون يقوم على الاضطراب أو عدم الاتزان في التكوين العصبي.

# بيتهوفن

لودفيغ فان بيتهوفن احد كبار الموسيقيين في العالم. ولد سنة ١٧٧٠، وقد كان عازف بيانو ممتازاً. وكان يؤلف القطع الموسيقية وهو يعزف، بيد ان مؤلفاته المشهورة قد استنفذت منه جهداً كبيراً. ومن المؤلم ان بعض القطع من اروع الحانه قد كتبها بعد أن اصيب بالصمم، فلم يكن يسمعها، وانما كان يتخيل وقع أنغامها على السمع، وقد مات بيتهوفن سنة ١٨٢٧ بضمور الكبد بعد أن سبب له الاستسقاء

وفي اثناء حياته كان مرض (البرد والرشح) مما يصيبه كثيراً، ومرة وقع على الأرض في حالة غضب، وحاول البعض أن يعزو وضعه العام هذا الى مختلف الأمراض الجرثومية، ولكن طبيبه الخاص أتلف ويااللاسف كل حوادث مرضه وتطوراتها. والتشخيص الذي يدلناعلى خطه يؤيد القول بان وراء كل ذلك، الجرح النفسي، فهو قد كان في السادسة والعشرين من عمره حينما أصبح لايسمع الأنغام العالية، وبدأ عنده الطنين والرنين. وفي العام ١٨٠١ رجا من صديقه أمندا أن لايخبرأحداً بصممه بعد أن كان يائساً (ولولا الفن لانتحرت).

كان بيتهوفن مريضاً دوماً، ولكنه عندما أصبح في الثانية والخمسين من عمره أخذ يشكو من مرض النقرس في صدره، كما كان يتألم من التهاب الامعاء، القولنجات، الروماتيزما، الأزمة الصدرية، التهاب الرئة، مرض العين، ووجع رأس شديد ومديد.

هذه الأمراض جعلت منه عصابياً، الأمر الذي جعله غير محبوب أحياناً حتى من أصدقائه مثل ليشنوفسكي. مما يدل على أن كثيرين من الناس يتخذون موقفاً ازدرائياً حيال الشخص الذي تعتريه بعض أنواع خاصة من المشاكل في الحياة، اي الشخص العصابي. وهذه الكلمة اصبحت شائعة

وغالباً ماتستعمل بين العامة لشرح كل عمل أو شعور او فكر غير عادي أو غير تقليدي تقريباً. والأسوأ من ذلك هو انها اصبحت عبارة تحقير. فإذا أردت ان تحط من قدر شخص لقبته بالعصابي ـ وهذا الوصف يضع حداً لتحدياته.

ويعرف العصاب الوضعي في الدرجة الأولى بأنه رد فعل عند فرد ذي شخصية لاتتأثرولاتنزعج لولا وجود حالة خارجية مليئة بالمنازعات. وبما اننا لم نجد امثلة على هذا التعريف، لذلك فنحن نستنبط مثالاً مبسطاً في سبيل ايضاحه. هب ان شخصاً عاطلاً عن العمل، خلال ازمة بطالة حادة، عرض عليه وظيفة في بلاد أجنبية تستلزم تركه لمن يحب امداً طويلاً. وقد تكون رغبته في بقائه مع من يحب شديدة لحاجته لقبول الوظيفة أو اشد. فهذا من شأنه اثارة نزاع عنيف في نفسه. اما العصاب الخلقي فيكمن المشكل الأكبر، بالدرجة الأولى، في تشويهات الخلق لافي اوضاع حياة الشخص الخارجية، بالرغم من ان هذه الحياة، في حال صعوبتها، قد تصبح سبباً في اظهار مشاكل واضطرابات كانت حتى ذلك الحين مخفية، أو تزيدها عنفاً. والتشويهات الخلقية هي نتيجة تاريخ طويل، وهي تبدأ عادة في الطفولة وتشمل اجزاء قليلة أو كثيرة من الشخصية لدرجة خفيفة أو شديدة. وقد يبدو العصاب الخلقي حسب الظاهر السطحي مشابهاً للعصاب الوضعي. وبعبارة اخرى، قد يبدو لأول وهلة ان حالة خارجية صعبة هي كافية لايجاد عصاب في شخص (طبيعي). إلا ان دراسة تاريخ الشخص بعناية قد يبين ان صفات خلقية صعبة كانت موجودة قبل نشوء أية حالة مشوشة، وان المأزق الوقتي في حد ذاته يرجع إلى حد بعيد إلى صعوبات شخصية كانت سابقاً موجودة. وفضلاً عن ذلك،ان الشخص يتصرف بطريقة عصابية تجاه وضع في الحياة لايشتمل على أي نزاع بالنسبة للشخص الطبيعي السليم.

وقد اولت عالمة النفس كارين هورني الاضطرابات والتشويهات الخلقية اهتمامها(كما فعل فرويد جزئياً بعد ان تزايدت اكتشافاته) لابالعوارض المرضية، لأن العوارض يمكن شفاؤها بدون ان يشفى المرض، وبعبارة اخرى قد يمكن

ازالة العوارض بدون ان تزال اسبابها الكامنة. وقد لايكون هناك في الواقع أية عوارض مرضية، او قد تختلف هذه العوارض، ومع ذلك فقد يكون هناك اضطراب خلقي خطير. وبالاضافة الى هذا تقول هورني: ان الخلق - لا العوارض - هو الذي يؤثر في السلوك البشري.

على ان هورني تشدد خلافاً لما فعل فرويد، شأنها في ذلك شأن يونغ وغيره، على تفهم العصاب من ناحية وظيفية عملية، أي التغير المرضي في عمل المصاب بالعصاب لا التغيرات العضوية التي قد تصيبه، وانه لمن الضروري فهم العصاب من ناحية تكوينية تناسلية - أي معرفة كيف (اصبح الناس كما هم) - لكن هذا غير كاف، اذ لابد لنا من معرفة الميول اللاشعورية الموجودة فعلاً، وعملياتها وتفاعلاتها مع الميول الأخرى الموجودة كالبواعث والمخاوف وتدابير الحماية. وتقول هورني ان فرويد يشدد على تحليل الجذور الجنسية للباعث أو النموذج الطفلي المفروض، ان ذلك الدافع هو تكرار له.

لكن هذه الميول اللاشعورية تعتبر ذات أساس مشترك، وان محتويات المنازعات المركزية الديناميكية، الحركية، وعلاقاتها المتبادلة هي متماثلة من ناحية أساسية في كل انواع العصاب. وتشير هذه المنازعات الى ظروف خاصة في الحياة في ثقافة معينة لا الى مشاكل عامة في الطبيعة البشرية، مادامت القوى الدافعة والمنازعات في الثقافات الأخرى - على حد قول هورني - هي مختلفة. وتعني هورني بذلك انها لاتعتقد بطبيعة بشرية عامة مشتركة بين جميع الأفراد، أو هي تشير على الأقل إلى ان الحالات العصابية لاتمثل مشاكل عامة مشتركة بين البشر عموماً. لذلك فإن فكرة الشخصية العصابية يعني فقط ان هناك اشخاصاً عصابيين ذوي مميزات اساسية مشتركة، ولكنها تعني ايضاً ان هذه المتشابهات الأساسية هي ناتجة بحكم الضرورة عن الصعوبات التي افرزتها العصور الحديثة.

اذا كان العصاب قد رافق بيتهوفن في حياته، نتيجة امراضه وصممه، فإن عبقريته الموسيقية قد تميزت بطابع أخلاقي ذي نوع أسمى، لأنها قد

صدرت عن تعبير مباشر مخلص صادر عن روح عظيمة، شعرت بالاشفاق على آلام الآخرين وشقائهم، كما شعرت بالحقيقة والواجب والانصاف. فجاءت تلك الموسيقى ترديداً لهذا الشعور في صورة متألقة بهية بفعل مثاليتها البهيجة المجيدة وروعة أشجانها، وتفانيها في الخشوع للقدرة الالهية.. كل هذه السمات قد بدت في صورة فنية مقنعة خالصة، لأنها قد خلت تماماً من أية نزعة تربوية، أو تقويمية. فقد امتلأ كيان بيتهوفن كله بهذه الروح الشهيرة المتأججة بأسمى الآمال الانسانية وأنبلها. وتحركت هذه الروح أثراً واضحاً فذاً وطابعاً مميزاً على نشاطه الفني برمته. ولايتعدى هذا الفن كونه أبلغ تعبير بلغة الموسيقى عن عالمه العاطفي وأحلامه واثاراته، وأهوائه وشكوكه ومطامعه، وتبرمه، وخصوماته، وتجاربه المفجعة، وتعلقه بالحياة. ولم تكن الموسيقى حتى ذلك الوقت وسيطاً طيعاً كافياً للتعبير عن هذه العواطف بتعددها وتنوعها، ولذا وهب بيتهوفن حياته لاعادة تكوينها وتشكيلها حتى تصبح قادرة على تحقيق غاياته. وعندما قام بيتهوفن بالبحث عن أوفى وابلغ تعبير عن حياته العاطفية، اكتشف عالماً جديداً. فمهد بذلك الطريق أمام جميع الموسيقيين الذين أتوا بعده خلال قرن من الزمان. وظلت موسيقاه منذ ذلك الوقت أساساً لكل ماجاء فيها بعد في القرن التاسع عشر، وأصبحت له أهمية موسيقية. ويعد شوبرت وأعلام الرومانتيكية فيبر وشومان ومندلسون وبرليوز تلامذة لبيتهوفن، بالاضافة إلى ليست وبرامز وبروكنر

# تيمورلنك

يعني اسم تيمورلنك عند أكثرية الناس الساحقة، شخصية عسكرية اقترفت قدراً من الفظائع طوال فترة الأربعة والعشرين عاماً من حكمه، مثلما اقترفه الملوك الآشورين الأخيرون خلال مائة وعشرين سنة. اننا نتخيل المجرم الذي ساوى مدينة اسفراين بالأرض عام ١٣٨١، واستخدم عام ١٣٨٣ ألفي أسير في بناء سليزاوان، وكدس خمسة آلاف رأس بشرية في المآذن في زيري في نفس السنة، وطرح أسراه من لوريستان أحياء من أعلى المنحدرات عام ١٣٨٦. وذبح سبعين ألف شخص وجمع رؤوس القتلى في هيئة مآذن في أصفهان عام ١٣٨٧ وذبح مائة ألف أسير في دلهي عام ١٣٩٨، ودفن أحياء أربعة آلاف جندي مسيحي من حامية سيواس عقب القبض عليهم عام ١٤٠٠ وابتنى عشرين برجاً من جماجم القتلى في سورية عام ١٤٠٠ ـ ١٤٠١.

إن نفسية تيمورلنك هي نفسية المجرم الحقيقي، كما هي نفسية المجرم المجنون. ويمكننا القول بصدد هذه الحالة ان اول وأسبق نوع من العوامل التي تسيء إلى العلاقة بين الفرد والمجتمع هي العوامل الوجدانية، وهي العوامل التي تؤدي إلى اضعاف أو فصم صلة الانتساب التي يحس بها الفرد نحو المجتمع ـ ومن أبرز هذه العوامل المضعفة للروح الاجتماعية في الفرد عاملان هامان لهما أثر بالغ في تشويه الروح الاجتماعية وفي انسياق الفرد وراء نزعاته وأهوائه دون احتفال بغير نفسه مما قد ينتهي باقترافه لافعال لااجتماعية أو اجرامية وهما: اضطراب الحياة العاطفية في عهد الطفولة وثانياً الشعور بالدونية.

وهذه النقاط إذا تقصيناها في تيمورلنك نراها موجودة في حياته. فبالنسبة لحياته العاطفية في عهد الطفولة نراها في منتهى الجفاء. وإذا فرضنا ان الجانب الأكبر من التكوين النفسي للفرد انما يتم في صدر الطفولة، كما ان البيئة والظروف مسؤولة الى حد كبير عن سلامة النمو النفسي، وخاصة في فجر

الحياة، فإن الصورة التي تبدو فيها الحياة للطفل ذات اثر كبير في ادراكه لمعناها ونظرته الى حياة الآخرين وصلته بهم وتكييف شعوره نحو المجتمع ورسم أسلوبه في الحياة. وربما كان هذا احد جوانب تكوين نفسية تيمورلنك في عهد الطفولة ففي بعض الأحيان قد تكون ظروف الطفل من القسوة -أو تبدو له انها من القسوة - بحيث يظن ان الحياة كلها تألبت عليه وأحدقت به. وكلما ازداد مايصادفه من عقبات، كلما تفاقم لديه هذا الشعور. ومن هنا تظهر لنا الصلة بين اضطراب النمو العاطفي وبين السلوك الاجرامي.

ونحن نعلم ان تيمورلنك كان يفتقد الحب في طفولته، علمًا ان الطفل يحتاج إلى الحب والاعتراف بشخصيته وقدره مع اعطائه فرصة الشعور بالقوة والخلق والانتاج والاستحواذ، وأي ضغط يمنع نشاط هذه النزعات سوف يولد في الطفل مشاعر السخط والحرمان والغيرة والعجز، وكلها مقدمات للسلوك اللاجتماعي. إن هذه النزعات تسعى الى الاشباع بأي وسيلة واغلاق المصارف الاجتماعية لها بفتح الطريق لاشباعها عن طرق جانبية غير مشروعة. ويعتقد ان اضطراب النمو العاطفي قوة حبيسة في نفس الطفل ما ان تطرقها العوامل الخارجية حتى تنطلق معها في طريق الجريمة، وكلما كان الاضطراب العاطفي اشد كان الضغط الخارجي المتطلب لحدوث الاجرام اقل.

اما الجانب الآخر المتمثل بحياة تيمورلنك كما أشرنا من قبل فإنه الشعور بالدونية. فالطفل يشعر دائمًا بالنقص بالنسبة إلى الكبار كما يشعر بنزعة الى التساوي بهم، بل والتفوق عليهم وهو شعور طبعي في مرحلة الطفولة لايدل على أي شذوذ، فالطفل لايشعر في علاقته بالكبار بتخلف حقيقي بل يدرك أنه في مرحلة باكرة سوف تمضي ويمضي معها نقصه عندما يصبح في عداد البالغين. ولكن يحدث أحياناً أن لايكون لدى الطفل هذه الثقة في المستقبل والطمأنينة اليه، وقد يكون هذا نتيجة نقص ما، من الناحية البدنية أو الصحية أو العقلية وهو المرجح بالنسبة لتيمورلنك.

إن التعويض عن النقص في الطفولة يتخذ عدة اتجاهات. فالحرمان من التعليم في الصغر قد يعوض بادراك جيد عن الكِبّر. كما أن الحرمان والشعور بالدونية عند الصغر قد ينمي في الكِبّر النفسية الاجرامية المقترنة ببعض الجنون.

# جابوس

من أفكـه ماحدث في عهد جابوس ان خلت وظيفة **قنصل** في احدى الممالك التابعة للامبراطورية، فطالب أفراد أسرة شريفة بمنح هذه لأحدهم، فما كان من الامبراطور الا أن أصدر أمره بتعيين جواده الأصيل قنصلاً عاماً لتلك المملكة، احتقاراً لهذه الأسرة وتنكيلاً بأفرادها، وعين أحد رجاله وكيلاً للقنصل.

ومن طرائف الأمر ان هذا المعتوه كان مولعاً بأصداف أم الخلول، وقيل له ان شواطىء نورماندي (في شمال فرنسا وعلى بحر المانش) تكثر فيها هذه الأصداف. فما كان منه إلا أن عبأ عدة فيالق من جيشه وناط بهم جمع أكبر كمية منها، مع عظم المسافة بين روما ونورماندي.

واذا احيلت هذه الشخصية الى العيادة السيكولوجية نظراً لشذوذها فإننا سنـرى ان جابـوس كانت مواهبه الفعلية ضئيلة حين دراسته او في صغره، وبالتالي فإن هذا الأمر حال دون اجتذاب اهتمام الأهل والمدرسين له وتقديرهم.

هذا الأمر يجعل من اي فرد حين يكبر يفكر في الأعمال الارهابية، وغالباً مايكون هؤلاء الأفراد هزال البنية يشكون من عاهات جسمانية كالحدب والعور وقصر القامة المفرط وقبح الشكل.. الخ. وقد فطن الكتاب الروائيون إلى هذه الحقيقة وصوروا لنا رؤساء العصابات في صورة الرجل المخيف الهزيل الذي يعوض عن نواحي النقص الجسماني بشتى ضروب المكر والقسوة.

وجابوس شأنه شأن بقية الطغاة الذين يحاولون سد نواحي النقص فيهم بمختلف ضروب الظلم والخداع والقسوة والاعتداء، لايكتفون باستخدام هذه الأسـاليب الشاذة في نطاق سلوكهم الفردي، بل يتخذون من الحياة القومية

والسياسية مجالاً أوسع لسلوكهم الشاذ، فيعتقدون أنهم يمثلون دولتهم بل أنهم تقمصوها وأن نواحي التظلم التي يختبرونها في أنفسهم ليست خاصة بهم بل بالدولة ذاتها.

وقد يختفي الاتجاه الاعتدائي وراء ستار من التبرير المضلل. فليس الغرض من هذه الحملة العسكرية مثلاً الاستيلاء على أرض الشعب المعتدى عليه، بل إصلاح شؤونه وتوفير أسباب سعادته ورقيه. أو توسم تلك الحملة العسكرية المكوّنة من مئات من الآلاف الجند بأنها حملة تأديبية يقصد منها حماية أقلية صغرى لايتجاوز عدد أفرادها بضعة آلاف.

حدث في علم النفس تحول بفضل دراسة المجانين، ذلك أنه وجُد أن المجانين لايصلون الى آرائهم عن طريق عدد من الأقيسة المنطقية ذات المقدمات الكبرى المسلم بها، وان كان المفروض في القرن الثامن عشر أن ذوي الذكاء الطبعي يصلون الى آرائهم عن هذا الطريق. ولست أقصد القول بأن هؤلاء الرجال ذوي الذكاء الطبعي كان يفترض كل منهم ذلك في صاحبه، بل أعني أن علماء النفس النظريين كانوا يفترضون ذلك. وتروى قصة كانديد لفولتير أن كاكمبو حين قابله رهط من آكلي لحوم البشر، وتأهبوا لأكله واجههم بخطاب بدأه بقوله أيها السادة وفيه يستنتج بالقياس المنطقي على نظريات القانون الطبعي أنه ينبغي عليهم أن يأكلوا اليسوعيين فقط، وبما أنه وكانديد ليسا من اليسوعيين، فمن الخطأ شيّهم على النار.

وقد وجد آكلو لحوم البشر أن هذا دافع معقول جداً، وأطلقوا سراحه وسراح كانديد وسط مظاهر التهليل. وفولتير يسخر في هذا من المذهب العقلي في عصره، وإن عصره ليستحق هذه السخرية، أو على الأقل فيما يتعلق بعلماء النفس النظريين. وأن علماء النفس النظريين في أيامن هذه قد صاروا ـ بعد تقدم جديد ـ على حظر من العلم بالعمليات العقلية يعدل حظر اليسوعيين وغيرهم من الضاربين في الأرض. ولقد وجد أن علل التصديق في الحياة اليقظة تشبه في معظمها علل التصديق في حالة الأحلام أو حالة الجنون أو حالة النوم

**المغنطيسي. ولكنها بطبيعة الحال لا تشبهها تمام الشبه.**

وجابوس في آرائه الجنونية يجعلنا نقول ان المعتقدات التي توحي بها الرغبات الشخصية الخالصة قلما تكون صحيحة، ونعني بالرغبات الشخصية الخالصة تلك التي تصطدم برغبات الآخرين. وحين أقول أن عقيدة غير شخصية، فإنما أعني أن الرغبات التي تشترك في احداثها هي رغبات انسانية عامة، وليست رغبات خاصة بالفرد وحده. والتحليل النفسي بوصفه نظرية نفسية هو الكشف عن الرغبات - غير الشعورية عادة - التي توحي بالعقائد وخاصة في أوهام الجنون والفترات الأقل تعقلاً من حياتنا العملية التي تدعى بالواعية

# جان جاك روسو

عين الأطباء الذين درسوا حالة روسو هذه آخر سنة١٧٦١ تاريخاً لأول ازمة في هوس الاضطهاد الذي اصابه. ولقد اثارتها الضربة غير المتوقعة، وصحبتها نوبات عنيفة من مرض المثانة سببت له من الألم ماجعله في احدى اللحظات يفكر في الاقدام على الانتحار. كما كان مصاباً بالشيزوفرينا، اي (الفصام).

اغرب مافي امر روسو ليس انه لم يدرك مقدماً خطر شهرته وعبقريته فحسب، بل ان هذين الأمرين قد هبطا عليه بالرغم منه.

ولد روسو في الثامن والعشرين من حزيران سنة ١٧١٢ في جنيف المدينة والجمهورية المدهشة، مقر الديانة الانجيلية وليدة حركة الاصلاح، التي كان مجردوجودها ضرباً من التعارض الغريب لما كان يحيط بها ويتخللها من حكومات ملكية وكاثوليكية عظيمة.

قضى روسو السنوات الثلاثين الأولى في جو سعيد خامل بصفته سويسرياً صغيراً متشرداً. فقد خلقت منه الحياة تلميذاً خاملاً، لايأبه للقوانين والضوابط الاجتماعية، وكان من ثم ان زاد احساسه بالكبت الأدبي والمادي المتكلف في دنيا الأدب وحياة البلاط في باريس. واذ كان في باديء الأمر خائفاً، مغلول اليدين، فقد كبت احساسه بالألم والتمرد والاشمئزاز. إلا أن هذا الاحساس اخذ يزداد ويتألب إلى ان انفجر في هذه الآونة. وبضربة واحدة كشف عن الفساد الاجتماعي - عن التفسخ والجور في المجتمع، وقد ابانت تلك الاستجابة الهائلة لصرخته الأولى عن رسالة ماخامره ريب بها من قبل.

يرى روسو لنفسه اعداء كثيرين وهم: لابومبادور المقرب من الملك، ورئيس الوزارة المخيف والوزير شوازيل، وموجهتا الرأي العام في باريس، وهما مدام ديدفاند، والآنسة دي لسبناس، والفلاسفة الذين رأوا فيه مرتداً عن

مجتمعهم السري وعلى رأسهم فولتير المفعم حسداً وحقداً. والطبقة العادية من رجال القانون، وهم البرلمانيون الذين بدأوا يتخوفون من الخطر الكامن في مايذيعه هذا الغريب من الأفكار الجريئةوالثورية، واخيراً ذلك الائتلاف الغريب من الملحدين والمتعصبين الذين لم يكونوا حتى آنئذ قد اجمعوا على امر. اخذوا الآن في ان يتألبوا حول كتاب لم يشك روسو نفسه في مدى خطره. ولم يكن هذا الكتاب، كما قد يظن (العقد الاجتماعي) ـ الكتاب الذي قدر له ان يصير بعد مرور ثلاثين عاماً (انجيل) روبسبير، مع أنه لم يؤبه له في حينه، بل هو اروع مؤلفاته وانقاها واعمها حيزاً ـ هو انجيل التسامح والاعتقاد الكريم الذي لايشوبه شيء من ترهات الكنائس ـ هو كتاب (اعلان رعوية سافوي)، الذي يشكل القسم الرابع من كتاب (أميل). وقد كان من شأن هذا الكتاب ان يعقد التحالف على روسو في مادعاه (بتعصب الملحدين وتعصب المتزمتين) واخذت موجة الاضطهاد تلاحقه اينما كان. فبعد ظهور كتاب (اميل) في هولندا باقل من عشرين يوماً، وقبل أن يتسنى الوقت الكافي لتوزيعه في فرنسا، اصدر البرلمان الفرنسي بدون انذار تمهيدي حكمًا بحرقه، واعتقال مؤلفه (٩ حزيران ١٧٦٢). وفي الحادي عشر من حزيران مزق الكتاب واحرق علناً عند قاعدة درج قصر العدل في باريس. وقد قيل علناً بأن احراق الكتاب لايفي بالغرض، بل ينبغي حرق مؤلفه ايضاً. وهكذا فر من فرنسا الى سويسرا.

وقد طارده خصومه بعنف لايصدق. وبعد باريس بتسعة أيام احرقت جنيف بدورها كتاب (اميل) وحذت برن حذوها، ثم تلتها نيوخاتل. ولعله لايستغرب من رجل ضعيف رقيق القلب اعزل، وفريسة لمرض مؤلم سام، أن يضيع توازن تفكيره تحت وطأة الحقد الذي غمره، ويغدو من ثم فريسة لهوس الاضطهادالذي تفاقم على مر السنين. فلقد بدا له ان العالم باسره تحالف ضده وحاك له خياله في أثناء وحدته وانفعاله، نسيجاً سخيفاً لمؤامرة عالمية عليه، تراءى له ان في وسطها سلطة مجهولة ـ اعرض عن تسميتها ـ اعتزمت ان تلحق به اشد الوان العذاب هولا.

إذن مرض روسو النفسي كان هوس الاضهاد، وهو يرتبط في الغالب بفكرة العظمة. فإذا كان المريض يعلم كل شيء، وكان قوياً وواضحاً على وجه الاطلاق، أليس من مصلحة البعض أن يقتل؟

وقد تبدو الهلوسات في أغلب الأحيان بأن يسمع المريض أصواتاً تشتمه وتهدده. ويزعم أحياناً أن ثمة من حطم دماغه ليستولي على تفكيره أو يوجه أفكاره. فمن الطبعي اذن ان يشعر هذا المريض بحصر شديد لايفتأ يعزز هذيانه. ويدعي أحياناً أن الناس يضطهدونه دون أن يضيف أي توضيح. ولكنه يشير في بعض الأحيان الى شخص معين، إلى تجمع سياسي، إلى طائفة دينية، وتعلم دوائر الشرطة والسلطات القضائية شيئاً من ذلك.

إن الفكرة الهذيانية التي اخذت ايضاً بروسو هي عبارة عن فكرة خاطئة غير قابلة للتحول يتمسك بها المريض ويؤكدها في اعتقاد جازم برغم وجود عوامل أخرى تدحضها ومجموعة هذه الأفكار تكون هذيان المريض وهي تنقسم الى ثلاثة أنواع: أفكار التعالي (مركب العظمة) وأفكار الاضطهاد والأفكار السوداء بسبب الخسارة المالية أو الاحتقار أو التجاهل أو الاتهام.

وهذه الأفكار كثيراً ماتمتزج بالهلوسة وهي التي تسبب الاضطرابات في علاقات من يصاب بها مع بني جنسه والعالم الخارجي وتبين مدى الفرق بين المصاب والسليم. ويمكن أن تترجم الأفكار الهذيانية بأعمال خارجية تدل عليها. فالمضطهد على ذلك يتحول الى مضطهد حين ينهض للدفاع عن نفسه بمهاجمة مضطهديه، وهو هنا يصبح خطراً على المجتمع. وفي ذلك كثيراً مايكتفي بالتعبير اللفظي عن أفكاره وان كان يكتمها في نفسه في أحيان كثيرة.

أما عن اصابة روسو بالشيزوفرينا فمن خلال اعترافاته نرى انه كان يحس من كل تصرفات من حوله اضطهاداً يستهدفون من ورائه أذاه؟

إذا كانت الشيزوفرينا عنت الاضطراب العقلي المبكر الذي يصيب الشاب ثم يأخذ في التزايد حتى يفقده قواه العقلية، فقد قصد البعض اضطراب نفساني مظاهره عدم الانسجام وضعف الترابط في التفكير. وبهذا عمم

اصـطلاح الشيزوفـرينا بعد ذلك حتى شمل حالات عديدة منها الحالة التي يكون·فيها انساناً ماخاضعاً لتأثير عناصر حياته الداخلية اكثر من خضوعه لتأثير حياته الخارجية ومنها الهلوسة وهي حالة احساس المريض الذي يقوم على أمر وهمي ومنها أفكار الهذيان وهي الاضطراب النفسي الشديد الناشىء عن الانفعالات .

على ضوء ماذكرناه فإن روسو كان مصاباً بهذه الأمراض النفسية . ولعل العلاقة المميزة لاضطرابه النفسي هي البساطة التي كان يضع بها أقرب أصدقائه موضع الشك ولم تسلم كثرتهم من ذلك، ولذا كان أصدقاؤه المقربون يتجددون باستمرار. ولكن، برغم ماكان روسو يعانيه من اضطراب نفسي وذهني، وبرغم ماعناه كذلك من تقلبات الزمن معه، فإن ذلك كله لم يؤثر على كتاباته عموماً .

# جان دارك

كانت البطلة المحبوبة والشخصية الفذة (جان دارك) تعزى شجاعتها وبطولتها واقدامها ومغامراتها ومواجهتها أشد الأخطار الى تلك الاصوات التي كانت توحى بها اليها مخاطراتها. وما هذه الاصوات سوى هلوسات سمعية Hallucinations وهي من الأعراض المعروفة في الأمراض النفسية.

والهلوسات السمعية ترتبط بالهذاء أو البرانويا وهو مرض من أمراض الذهان لا العصاب. ولعل أحدا من الأمراض العقلية الأخرى لم يتغير معناه بالكثرة التي تغيرت بها كلمة برانويا. فقد ظهرت في أقاصيص وأشعار الكثيرين من كتاب اليونان القدماء، وعند أفلاطون، بل قبل عصر أبو قراط الحكيم. ولكن المعنى العام الذي يستخلص من كل هذه الكتابات أن الهذاء مرض عقلي يتمثل في هذيانات وأوهام عقلية قوامها الاضطهاد من نوع بعينه، يؤيده المريض ويدافع عنه بطريقة منظمة في حماسة وإصرار. وتشغل هذه الهذيانات عادة جزءاً صغيراً أو كبيراً من عقله، محاولة أن تتسع دائرتها لتشمل العقل كله.

إن المصابون بالبرانويا من العباقرة والمجانين بالعظمة يتخيلون وجود كائن إلهي يقوم في داخل أنفسهم يهيئهم لرسالة ويستخدمهم لغرض.

وتعتبر الأفكار الهاذية والأفكار المتسلطة - في الطب العقلي - اضطرابات عقلية خالصة. لكن البرانويا اضطراب عقلي ذهاني لاتصل إليه الأفكار المتسلطة إلا عندما تصبح حالة جنون. واذا كانت الأفكار المتسلطة يمكن تتبعها، فإن نفس الكلام يمكن أن ينطبق على الهذيانات. غير أن الهذاء أكثر خطراً وأوغل الاضطراب.

فأمراضه تدخل ضمن اضطرابات الشخصية في مجموعها، وفيها يتم إسقاط إحدى الشخصيات المتحللة - الشخصية المكبوتة - وإظهارها في صورة

شخصية أخرى اضطهادية، أو أصوات اتهام للمرء ـ وهي ليست إلا أصوات شخصيتنا الأخرى المتحلله.

إن البرانويا بوصفها مرضاً ذهانياً ينطبق عليه أي تعريف للذهان نأخذ به، بالتشكك، والأفكار المشيرة للذات (أن الناس يتحدثون عنا) وأصوات الاتهام المسموعة، وهذيانات الاضطهاد. كما يتميز البرانوئي بنفسية قوية ونقص في الحب، اذا وجد الحب فهو حب نرجسي ومركز حول الذات ـ والمريض بسبب رغبته في أخضاع الآخرين يشعر أن الآخرين يضطهدونه، وبسبب تربّاته ضدهم يمتلىء بالشك في أنهم يتآمرون عليه. ويحيا المريض بالهذاء في خوف دائم من أولئك الذين يتربصون به يريدون قتله ليحلوا محله، وهو لايخشى القتل إلا لأنه هو نفسه قاتل، الأخطار بالنسبة له تكمن في كل خطوة يخطوها.

وفي بعض الأحيان يكون الأنا الأعلى أو الضمير الخلقي هو الذي تم كبته وإسقاطه إلى العالم الخارجي. وأحياناً أخرى يكون الأنا المكبوت أو النفس الطبعية هي التي أسقطت. ففي هذيانات الأفكار المتسلطة خصوصاً، تكون النفس الخلقية أو الأنا الأعلى هو الذي يشير باصبع الاتهام.

إن المريض وقد تسلطت عليه فكرة الاتهام الذاتي بالأثم دون أن يرغب في الاعتراف بالاثم، يجد من الملائم له أن يسقط تهمته على الشيطان الذي هو مصدر كل شر، والدافع لكل فعل شرير، فالشيطان حينئذ تجسيم موضوعي إسقاطي لآثامنا التي يُعقدنا الشعور بها، ونتمثله في هذه الحالة كائناً حقيقياً فعالاً مسؤولاً عن ذنوبنا.

والمريض في الهلوسة يتصرف وفق احساسات وادراكات سمعية أو بصرية لاوجود لها في الواقع. والهلوسات التي سمعتها جان دارك كانت دون سند من واقع خارجي، فقد كانت تسمع أصواتاً وترد على أقوال أشخاص خياليين، وتناقش محدثين غير مرئيين، وتسمع تهديدات، وتجمد نظرها في مكان معين. وكانت تدافع عن نفسها متخذة متراساً، واضعة سدادات في أذنيها، صانعة شاشة تحميها من الموجات التي تلتقط فكرها.

# ديـدوره

كانت تنتاب ديدوره فترات من الجنون، لايعرف فيها أحدا من أقاربه وأصدقائه، ولايستطيع الاجابة اذ سئل عن الساعة أو تاريخ **اليوم** أو الشهر أو السنة.

ومن هذا الوصف يمكننا ان نقول ان سلطة الدماغ على العضوية تقدم **لنا مثالاً** نموذجياً عن العلاقات بين (النفس) و(الجسم). فالهيستيريا تكشف عن **الأعراض** العضوية، العضلية والنفسية، الأكثر تنوعاً. يضاف إلى هذا ان شخص كديدوره يقبل **الايحاء** إلى الحد الأقصى

وحالة كهذه ليس من المفروض ان تكون لها حالة هيستيرية واحدة، بل ثمـة تشكيلة طويلة من الحـالات، كما هو الأمـر في كل شيء، تتـدرج من الهيستيريا البسيطة الى الهيستيريا الشديدة. ولايثير أي مزاج **هيستيري نوبات**. فثمة بعض الهيستيريين الذين يقضون حياتهم بطولها دون أن يبدو عليهم أي مظهر يتصف بالمغالاة. والمزاج الهيستيري قبل كل شيء، مزاج عطوب، وفي السير الوظائفي الدماغي خلل، والشعور والارادة منعدمان عملياً. ولهذا انما كان من السهولة بمكان أن نجعل الاشخاص الهيستيريين يفكرون ويتصرفون بالايحاء.

إن السير الوظائفي الدماغي السيء هو الذي يجعل الانسان السوي جداً في ظروف مماثلة، على وجه التقريب، لظروف الهيستيريا. وتبدو سلطة الايحاء، وتشرع المراكز العصبية اللاشعورية في التأثير فيه بقوة أشد، مادام كبح القشرة الدماغية يضعف. وذلك مايحدث كثيراً في الانفعالات، كالخوف، والفزع، والخوف المرضي، **والفحوص**، ونوبة الخجل، وتفتح الطريق الى المجال اللاشعوري.

ومن المفـروض الـتركيز، اكثـر فأكثـر، على التـوازن والسير الوظائفي الـدمـاغي، على سير الدماغ، في التخلص من العقد التي تخلق الهيجانات اللاشعورية الضارة، دون توقف. ولابد من التنويه بمعرفة الذات، والآليات الانسانية، والآلة الانسانية. ثمة عشرات الألوف من الناس الذين تقوقعوا على ذواتهم، وانطووا في عالم شخصي لايتوصلون إلى التحرر منه. لقد انثنوا ثنيتين على عقـدهم ومخـاوفهم، على حصرهم وعدوانيتهم. ولكن ثمة مهمات اكثر نبلاً. ان السير الدماغي يتيح للعضوية ان تعمل في اتجاه اهداف اعظم من ان يقهر الانسان نفسه او ينطوي على ذاته. هناك الآلاف من الاشخاص الذين يحوّلون، بالكبت، أو بالتشنج، كثيراً من فاعلياتهم الدماغية الشعورية لصالح الانفعالات والأمراض.

يسرف الانسان في تعلم كيفية قهر نفسه وتعلم الكبت، واخفاء افراحه ودوافعه وغضبه باسم اوامر ترتكز، غالباً، على رمل الأعراف العابرة المتحرك. ويتألم الانسان لان به عطشاً إلى شيء آخر، حتى ولو لم يكن غير الظمأ الى أن يكون ذاته، أصيلاً، متحرراً مما هو فيه.

إن حيازة آلة في حالة جيدة لاتوصل، بصورة آلية، إلى القيم الانسانية، ومع ذلك، فإن من المعلوم أن التربة ذات الاستعداد المسبق أمر رئيسي في ظهور المرض. لماذا لايكون الأمر كذلك في ظهور الوضوح؟ وفي البداية، أليس الأمر الذي يثير من الاهتمام أكثر مما يثير غيره الا يتعذب الانسان؟ أن يشعر بأنه في يسر نفسي بحيث تكف المشكلات الصغيرة أن يكون لها الأهمية؟ اذ نذر الفكر، على هذا المنوال، مفتوحاً لرؤيات اكثر اتساعاً واشد عمقاً؟

تستهوينا الرغبة في أن نقول ازاء حالة ديدوره انه لخسارة. . خسارة أن تخنقه الظروف الكثيرة التي اوصدت على امكاناته باباً. خسارة أن يرى المرء مثل ديدوره كثـيراً من النـاس تقـودهم القـوى تحت الشعورية، تقودهم عقدهم وضروب كبتهم وعـدوانيتهم وبحثهم عن التعـويض. . هؤلاء الاشخـاص لايحيون حياتهم، بل تستولي عليهم الأحداث.ان مثلهم كمثل الحصاة التي يمر عليها نهر كبير.

# شوبنهور

لعل ارثر شوبنهور الفيلسوف الألماني الكبير لم يكن مسؤولاً عن نفسيته الشاذة وتصرفه الجنوني، فقد كان الجنون منتشراً في أسرته والمقربين اليه في عدة أجيال. ومن أعراض جنونه انه كان يقضي عدة أسابيع منعزلاً، عاكفاً منطوياً على نفسه، لايحادث أحدا، ويشير بأصابعه وذراعيه وكأنه يخاطب صديقاً في موضوع غاية في الخطورة.

إن السمة التي اتصف بها هذا الفيلسوف هي التشاؤم والمرض السوداوي، فهو قد عاش وحيداً بلا ام ولازوجة ولاولد، ولااسرة ولا وطن ولاصديق. لقد كان ابوه تاجراً امتاز بالمقدرة وحدة الطبع، واستقلال الشخصية وحب الحرية، وقد غادر مدينة دانزغ التي ولد فيها ابنه عام ١٧٨٨ على اثر ضمها الى بولندا عام ١٧٩٣. وعلى الرغم من انه هجر حياة التجارة التي دفعه والده إليها، فقد تركت اثرها في نفسه وطبعت نظرته إلى الحياة بطابع الواقعية في التفكير ومعرفة بطبيعة الناس، ومات والده منتحراً على الأرجح في عام ١٨٠٥، وتوفيت جدته وهي مصابة بالجنون.

إذن عائلة شوبنهور لم تكن في تمام سلامتها العقلية، ولكن لنتابع قصته مع امه حيث هناك جانب آخر لمرضه النفسي ولسوداويته.

يذكر شوبنهور انه ورث من ابيه خلقه وارادته، وعن امه ذكاءها. وهذه الأم بلغت في الواقع اوج الشهرة في عالم القصص والروايات، وغدت احدى مشاهير كتاب القصة في ذلك الوقت. لكن لم تكن سعيدة في حياتها مع زوجها الذي لم تساعده ثقافته على الامتزاج معها، وعندما توفي زوجها انطلقت كالطائر الذي كان في قفصه سجيناً تبحث عن الحب المتحرر بعد ان تحررت من قيود هذه الحياة الزوجية. وارتحلت الى مدينة اخرى حتى تنسجم مع هذه الحياة

المنطلقة التي كانت تتوق لها. وقد ثارت ثورة شوبنهور على هذا (التحرر) من امه، وأثّر النزاع بينهما على نفسه واثار مقته الشديد للنساء الذي رافقه طيلة حياته. وقد عاشت امه بعد ذلك اربعة وعشرين عاماً لم يرها مطلقاً.

في عام ١٨٢٣ اتيحت له الفرصة ليحاضر عن فلسفته في احدى الجامعات الكبيرة عندما دعي إلى جامعة برلين لبسط فلسفته امام طلابها كمحاضر خاص. فتعمد أن يلقي محاضرته في نفس الوقت الذي كان يحاضر فيه هيغل، وكان آنذاك في اوج شهرته. وكان شوبنهور على ثقة تامة بأن الطلاب سيقارنون بينه وبين هيغل بعين الأجيال القادمة فيفضلونه ويقبلون عليه. ولكنه فشل في ان يجتذب الطلاب من هيغل ووجد نفسه يلقي محاضرته امام صفوف من المقاعد الخاوية وبذلك انتهت سيرته الجامعية بالفشل، فراح بعد ذلك يهدم نفسه بنفسه وذلك بالطعن في هيغل وشيلنغ وفخته زاعمًا انهم ثرثارون ودجالون، على الرغم من أن فلسفته تدين بمقدار كبير إلى فكرة فخته عن الارادة.

وفي عام ١٨٣١ انتشرت الكوليرا في برلين، وفر هيغل وشوبنهور من المدينة. ولكن هيغل عاد إلى برلين قبل ان ينتهي تطهيرها من الوباء تماماً، فاصيب بها ومات بعد اصابته بايام قليلة، اما شوبنهور فلم يتوقف اطلاقاً وواصل سيره إلى أن وصل إلى فرنكفورت حيث امضى البقية الباقية من حياته التي طالت إلى سن الثانية والسبعين.

وفيها كتبه شوبنهور نلمس سدى التشاؤم واضطرابه السوداوي، وعلى الأخص كتابه العالم كارادة حيث يقول: إن الحياة شر لانه لايكاد الانسان يشعر براحة من الألم والحاجة حتى يتملكه شعور بالسآمة والملل مما يدفعه إلى البحث عن شيء يعوضه شعوره بالملل والسآمة، ويبدأ في مواجهة المزيد من الألم، وحتى لو تحققت احلام الاشتراكيين في اقامة المدينة الفاضلة فسيبقى من الشرور مالايحصيه العد، لان بعضها كالكفاح مثلاً امر ضروري للحياة. واذا تمكنا من القضاء على كل شر، ووضعنا حداً للكفاح في هذه الحياة اصبحت السآمة عبئاً لايحتمل كالألم سواء بسواء، وهكذا نجد الحياة تتأرجح إلى الأمام والخلف بين الألم والسأم.. وبعد أن قلب الانسان آلامه وعذابه إلى فكرة

الجحيم، لم يبق لديه شيء عن الجنة سوى الملل. اننا كلما ازددنا في الحياة نجاحاً ازددنا مللا، وكما ان الحاجة هي السوط الدائم الذي يلهب ظهور الناس، فكذلك السآمة هي السوط الذي يلهب ظهر العالم الحديث. إن صورة الحياة في مجملها مؤلمة جداً اذا تأملناها، وهي تعتمد على جهلنا بها.

قلنا ان شوبنهور كان مصاباً بالمرض السوداوي ومن أعراضه الكآبة العميقة والخوف والقنوط واللوم الذاتي والتشاؤم وطلب الموت بالحاح والشعور الفاسد بأن كل مايحيط بالشخص وهمي لاحقيقة له. وكثيراً مايلجأ المريض الى الانتحار تخلصاً من حاله. وقد لوحظ أن الشخص الذي يكون أكثر عرضة من غيره للنوبات السوداوية يكون في العادة مرهف الحس، أناني المنشأ، موجهاً اهتمامه نحو تحليل حالاته الشعورية، متذبذباً في أعماله وتصرفاته وهو لايقوى على تحمل ماقد يصيبه من متاعب ونوائب ويعترف سريعاً بالهزيمة والخيبة. ويمكن اعتبار النوبة السوداوية بحق دليلاً على انهزام الشخص في معترك الحياة.

ويعتقد أن المرض السوداوي من الأمراض المجبولة في طبيعة من يصاب بها. غير أنه لايتحتم مطلقاً أن تنمو الاستعدادات الفطرية ـ اذا كان هناك فعلاً استعدادات فطرية للأعراض السوداوية ـ مهما اختلفت ظروف البيئة والتربية. فمن الممكن مقاومة الأسباب الاستعدادية منذ الطفولة وترويض الطفل على قمع نزعاته الأنانية وتهذيب عواطفه ومنعه من التذمر والتأنن.

ربما كان هذا الأمر واقعاً في حالة شوبنهور؟

# عمانويل كنط

عمانــويل كنط (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) من اعــظم الفـلاسفـة في العصر الحـديث، واعظم مفكر في شؤون ماوراء الطبيعة (الغيبيات) درس الفيزياء والنظريات الطبيعية، وحاول التوفيق بين ديكارت وليبنتز في رسالته عن (معرفة الطبيعة) والتوفيق بين نيوتن وليبنتز في كتابه (تاريخ الطبيعة العام ونظرية السماء) وكتب رسالة عن (وجود الله) ودرس العقل الانساني وحلله.

ولد في كونجزبرغ من أعمال بروسيا الشرقية، ولم يبارح بلدته الأصلية أبداً طوال حياته، وكانت ابعد مسافة ابتعد بها عن البلدة عشرين كيلو مترا. وقد ظل محتفظاً منذ نشأته الأولى بجانب من نزعة الورع كان له تأثيره في اسلوب حياته العام وفي كتاباته الأخلاقية.

ولم تبلغ فلسفة من السيادة والنفوذ في عصر من العصور مابلغته فلسفة كنط من النفوذ والأفكار في القرن التاسع عشر. فبعد ستين عاماً من التطور الهادىء المنعزل قام كنط بهز العالم وايقاظه من نومه العقائدي في عام ١٧٨١ باخراج كتابه المشهور: نقد العقل الخالص.

عمل في الجامعة، وكان في المواقف السياسية ليبرالياً كأحسن مايكون المفكر في عصر التنوير، وفي ميدان الدين كان موقفه يمثل نوعاً من البروتستانتيه غير التقليدية. وقـد رحب بالثـورة الفرنسية، وأيد المبادىء الجمهورية. وقد أكسبته مؤلفاته الفلسفية العظيمة شهرة واسعة، ولكنها لم تجلب له أية ثروة. وفي سنوات حياته الأخيرة تدهورت ملكاته الذهنية.

ولم يكن كنط مثل نيتشه أو شوبنهور في اضطرابه النفسي، ولكن امعانه في الدقة والنظام وغرابة اطواره في حياته الخاصة حدت بعارفيه ومن درسوا حياته من علماء النفس ان يضموا اسمه الى زمرة أنصاف المجانين من الفلاسفة والكتاب.

يمكننا ان نصنف مرض كنط بالتصلب وهو يتوفر في الحدود المحيطة بأية منطقة من مناطق المجال السلوكي، كلما كانت القوى اللازمة للتغلب عليها أضخم. وليست المنطقة على درجة واحدة من التصلب دائمًا، ولكنها تختلف في درجة تصلبها بالنسبة للعمليات المختلفة.

ويرتبط التصلب بخاصية اساسية للمخ تمنع (منطقة) سلوكية من التفاعل مع (منطقة) سلوكية أخرى لها صلة بها وتعديلها. وهما يفسران التصلب تفسيراً طوبولجياً باصطلاحات انساق التوتر وتصلب الحدود التي تفصل بين هذه الانساق. ونسق التوتر هو مجرد (نسق منظم من الاستجادات تؤدي كلها أو صممت لكي تؤدي إلى هدف معين، وقد يكون النسق غير هام ولا يستمر طويلاً، مثلما يتسلق طفل سورا ليأتي بكرة من الجانب الآخر للسور، وقد يكون النسق هاماً ومستمراً، مثل المجهودات المستمرة لشخص مثل كنط، بهدف الوصول إلى النجاح في عمله. وتظهر قوة أو تصلب الحدود بين الاتساق في استعداد أوجه النشاط التابعة لهدف ما لأن تفرغ في هدف آخر.

كلنا نعلم أن رغبات الطفل الصغير (كقاعدة) يمكن اشباعها باستبدال غرضه الأول بغرض آخر. بينما لدى الشخص الكبير يقل وجود الاستعداد لحدوث مثل هذا التحول في الاهتمام. واذا تطلبت الظروف ألا يستكمل نشاط مخطط، أو أن يتوقف نشاط بدأه الشخص فترة من الوقت، فهناك احتمال أقل لأن يكون الاستبدال المؤقت بنشاط آخر عاملاً مشتتا مستمرا. اذ يندر أو لايوجد كسر للحدود بين نسقى التوتر، فكل منهما يحتفظ بتكامله.

وفي النمو العقلي تجري عمليتان جنباً إلى جنب، بحيث كلما كبر الشخص، زادت مقدرته على القيام بعمليات عقلية متنوعة، وتأخذ هذه القدرة في التزايد حتى تصل إلى أقصاها بحسب مراحل النضج السوي. وفي نفس الوقت تجري عملية أخرى، فكلما تقدم الشخص في العمر أصبحت الحدود بين مناطق البناء النفسي أكثر مقاومة للتعديل. ونستطيع أن نفهم هذه النظرية على خير وجه، إذا تصورنا أن البناء النفسي للشخص عبارة عن مناطق مختلفة

لكل منها اختصاصها، وان بين هذه المناطق حدوداً، وهذه الحدود تكون مرنة في الطفولة فلا نجد هناك تمايزاً في سلوك الطفل، بل يتصف سلوكه بأنه أشبه بكتلة واحدة، فإذا بكى مثلاً اهتزت كل عضلات واجزاء جسمه، واذا اغضبه شيء واحد غضب من كل ماحوله، واذا سره شيء واحد عم سروره ورضاه على كل شيء يحيط به. ومع نموه وتقدم عمره يأخذ سلوكه في التحدد والتخصص، بحيث ان الطفل الأكبر سناً عندما يبكي فإنه في الغالب يبكي بالدموع فقط دون صوت او دون حركات تعم العضلات والأعضاء، كما أنه اذ اغضب من شيء معين فإن غضبه يكون محدوداً بذلك الشيء فقط، ولايميل الى تعميم غضبه على سائر الأشياء المحيطة به، أي انه مع تقدم العمر تنمو الحدود بين المناطق المختلفة من البناء النفسي، وهذا يعني في نفس الوقت زيادة في تصلب الشخص. أي اننا نجد في النمو النفسي عمليتان متقابلتان او متعارضتان. تجريان في نفس الوقت جنباً إلى جنب: من ناحية زيادة القدرة على القيام بعمليات وأوجه نشاط متمايزة ومتنوعة، ومن ناحية أخرى زيادة في قوة الحدود بين مناطق البناء النفسي بحيث لايحدث تداخل فيما بينها.

إن تزايد قوة الحدود التي تفصل بين المناطق المختلفة من البناء النفسي هي التي جعلت كنط متصلباً في الدقة والنظام، بحيث اصبح من الصعب عليه تغيير وسائله ان عز عليه الوصول الى الأهداف عن طريق تلك الوسائل، كما أنه صعب عليه تغيير اهتماماته فكل ماسببت له الما وخسارة. وبهذا صحب تقدمه في السن زيادة في تصلبه قللت شيئاً فشيئاً من مرونته ومطاوعته، وقابليته للتغير حسب ظروف البيئة.

وفي هذا الموضوع نستطيع أن نتصور مدى أهمية التحليل العاملي في علم النفس اذا اخذنا مثالاً ملموساً لنا في الحياة، نشهده في مجال الطب. فتشخيص الطبيب للمرض يبدأ بملاحظته عدداً كبيراً من الأعراض كارتفاع درجة الحرارة، وآلام الرأس والجسم والتهاب الحلق، الى غير ذلك من الأعراض المرضية، فنجده يربط بين هذه الأعراض المتباينة اعتماداً على خبرته السابقة

وعلى معلوماته، بحيث يتصور أن هذه الأعراض المختلفة تكون صورة واحدة تتكرر في حالات عديدة. ويتصور أيضاً أن هذه الزملة من الأعراض تشير إلى أن وراءها في الغالب سبباً واحداً هو جرثومة معينة أو فيروس معين، فإذا أمعنا النظر في هذا المثال نجد أن الترابط أو الاجتماع المتكرر لفئة معينة من الأعراض ادى إلى أن تأخذ صورة واحدة متميزة، وأدى أيضاً إلى البحث عما وراء هذه الصورة المترابطة من أسباب.

وهذا مايحاول التحليل الغاملي أن يحققه في مجال السلوك.. فأي مظاهر السلوك تجتمع معاً تحت ظرف معين بحيث تشكل ترابطاً واحداً؟ هذا هو مايسأل عنه عالم السلوك. ولعل الفارق الوحيد بين عمل عالم الطب وعالم النفس هنا كما يقول ايزنك: إن التحليل العاملي يجعل مايقوم به الطبيب مع أية حالة بشكل ضمني، ودون فهم كامل لهذا المنهج في البحث (في الغالب)، يجعله التحليل العاملي واضحاً ودقيقاً وصارماً.

إذن الفارق هو أن التحليل العاملي يهيء مزيداً من الدقة في البحث العلمي أو المنهج العلمي، وهذه الدقة ضرورية في مجال دراسة السلوك ووصفه والتنبوء به وضبطه وربما كانت الدقة هنا ألزم عنها في أي مجال علمي آخر، ذلك أن مزالق التيه والخطأ تملأ شعاب طريق البحث العلمي الجاد في السلوك.. وإذا لم يلتزم الباحث في مجال السلوك بالدقة والصرامة، فلن يطالع العالم بأكثر من تأملات ذاتية تعكس شخصية صاحبها وفلسفته في الحياة أكثر مما تعكس معرفة موضوعية بالواقع السيكولوجي.. ومن هنا فإن كثيراً من الدارسين للسلوك أصح أن يوضعوا بين المتأملين من أن يوضعوا بين العلماء أو الباحثين.

# غوتـه

كان غوته خلافاً لنيتشه عبقري التناقضات العميقة، يتفنن في تحاشي الأخـطار، يملك طريقة خاصة فائقة الجرأة في مجابهة هذه الأخطار وامساك الجاموس من قرنيه.

وهو من الكتاب الألمان الذين كانوا مصابين بالجنون الدوري، وفي هذا المـرض يتناوب الهوس والانقباض المريض، وهذا ماحدث له. وكثيراً ماكان يجلس أسابيع أواشهرا حزيناً، منقبض الصدر، عديم الحركة، تعذبه الآلام الوهمية، وقد شرع في الانتحار مراراً. ويقال ان عدداً كبيراً من الشخصيات التي كان يصورها في مؤلفاته كانت صورة حقيقية لبعض ماكان يحس به.

اعتصم غوته بالعصاب لكي يجد فيه الأمن النفسي. ومن البدهي اذن أن يكون العصاب ذاته ضرورياً له بصورة شعورية أو لاشعورية، مادام يجد فيه الأمن. ولايتذمر الشخص من عصابه بصورة عامة، بل يتذمر مما يؤلمه. وما يؤلمه ليس العصاب ذاته الذي يصبح لاشعورياً. بيد أن هذا العصاب يسبب اعراضاً، هي الأعراض المؤلمة التي كان يرغب غوته في التخلص منها.

إن العصابية او الاضطراب العصبي ليس مرضاً عضوياً يمكن تحديد عوارضـه ومسببـاتـه ببساطة لاتخاذ مايجب لاتقاء هذه المسببات عند المصاب واعطاء العلاج الشافي. فالأعراض متباينة من شخص لآخر والأسباب مختلفة وغامضة وتكمن في طيات العقل الباطني مما يستوجب علاجه الكثير من الصبر والارادة القـوية والعناية الجدية للتوصل الى مكامن الداء، ورغم التباين في الـظواهر والحالات عند المصابين، فإن اكثرهم يشتركون في الأصل بتميزهم بحساسية خلقية مرضية، فهم يتأثرون بمؤثرات ودوافع لاتبدو ذات اهمية عند غيرهم.

من ابـرز عوارض هذا المرض هو استمرار حيرة المصاب وعدم ادراكه

مايريد من الحياة في قلق نفسي دائم لايستطيع معه ان يحدد نقاط شكواه، حتى اذا ماأستأنس شخصاً وراح يحدثه بمشاكله تلعثم وعلت وجهه حمرة الخجل وازداد خفقان قلبه واعترت يده رجفة وانقبضت شفتاه. . لاقدرة له على التركيز او استيعاب الدرس او اكمال العمل الذي بين يديه، وهو لذلك دائم التنقل من عمل إلى آخر، ومن حرفة إلى غيرها في شكوى مستمرة من التعب وعدم تمكنه من احتمال المشاق. . نوم مضطرب. . احلام مزعجة. . توتر في العضلات. . خوف مرضي من الأماكن المظلمة أو المفتوحة الخالية من السكان.

وكثيراً ماتعتريه فترات تستولي عليه فيها كآبة مظلمة يبدو فيها وقد فقد كل ثقته بنفسه وانتابته دوخة مع شعور بوجود ضغط شديد على عنقه وصدره. . متردد في تفكيره. تراه احياناً وقد تملكته رغبة الهرب من نفسه والاختلاط بالناس في محاولة يائسة للبحث عن السلوى، واحياناً يخلد إلى العزلة والانطواء على النفس في اجترار آلام وذكريات مؤلمة، وهو غالباً مايهتم بأمور تافهة تكبر وتكبر في مخيلته، بينما يهمل امور جوهرية في واجباته وسلوكه وتصرفاته مما ينفر الآخرين عنه. وقد كان غوته في فترات اخرى محباً عطوفاً.

والعصاب يحدث ضروباً من التعويض لها انجازات مفيدة جداً من الناحية الاجتماعية. فغوته عوض عن طفولته المهانة خلال فترة طويلة بهدف الانتقام والتفوق، واصبح كاتباً عظيماً. بيد أنه بقي، في الاساس، شقياً مادام التعويض لم يمح الشعور بالدونية، انه يحس على الرغم من كل شيء بأن امتلاءه الداخلي غير موجود.

يشعر العصابي بالحاجة الملحة الى الاستقلال المطلق. . ولكنه يشعر، في الوقت ذاته، بالحاجة إلى أن يكون تابعاً، تحت الحماية، محاطاً بالرعاية. . الخ. لهذا السبب كان العصابي عاجزاً عن ان يقدم العون لنفسه في البداية على الأقل. وعلى عالم النفس أن يتدخل. فالعلاج مؤلم أحياناً من الناحية المعنوية، ولكنه ضروري. ذلك أن العصابي يجد نفسه بعلم النفس عارياً من الناحية المعنوية، مرتعد الأوصال، متخلصاً من بعض الأثواب البراقة، ولكن ذات الصنع الرديء

# فريـــدريـك نيتشــه

اصيب نيتشـــه بالسفلس وادخـل مستشفيات الأمـراض العقلية عدة مرات ، وكان يبدو معافى ، ثم لايلبث أن يعاوده المرض ،وقضى الاحدى عشرة سنة الأخيرة من حياته وهو يصارع الجنون مع الشعور بالعظمة .

وقـد كان يلازم الفـراش احياناً اياما كاملة . ويستبد به قيء وتشنج معدي يبلغان به درجة الغيبوبة عن الصواب ، وآلام حادة في صدغيه ، وعمى يكاد يكون كاملاً ، ومع هذا ، مامن احد عنده ليمد اليه يدا ، وليضع رفادة على جبينه الملتهب ، مامن أحد يقرأ له ، ويتحدث إليه ويضحك معه .

ولد فريدريك نيتشه في مدينة ريكن في بروسي عام ١٨٤٤ وتوفي في عام ١٩٠٠ ، وقد أثر تأثيراً عميقاً على فلسفة القارة الأوروبية وأدبها ، وخاصة في ألمانيا وفرنسا . حاول النفسانيون الهواة في كثير من الأحيان (تفسير) أفكاره بيد أن سيجموند فرويد قال عدة مرات عن نيتشه (وفقاً لما ورد في ترجمة حياة نيتشه التي كتبها ارنست جونز) . (إنه يعرف نفسه معرفة ثاقبة أكثر من أي انسان آخر عاش ، أو من المحتمـل أن يعيش) . ولاحظ فرويد ايضاً (أن تنبؤات نيتشه ولمحاته الثاقبة تتفق على أعجب نحو ممكن مع النتائج التي وصل إليها التحليل النفسي بعد كثير من العناء) .

منذ عاد من الحرب الفرنسية البروسية التي نشبت عام ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ الى مدينة بازل وصحته متهدمة . وفي عام ١٨٧٩ انقطع عن التدريس لاسباب صحيه ، وكرس نفسه تمام التكريس للكتابة في السنوات العشر التالية ، وكان يحيا حياة متواضعة إلى أبعد حد ، وفي عزلة تامة في سويسرا وايطاليا ، ويمثل كل كتـاب من كتبه انتصاراً شاقاً على عينيه نصف الضريرتين ، وعلى نوبات الصداع الحادة ، وعلى الآلام الجثمانية المتعددة . وما اكثر الصرخات التي كان يطلقها هذا الجسم المعذب . انه لوحة لجميع الأمراض الجسدية ، خط عليها مائة تدوين وذيلت بالخط النهائي الفظيع (لقد كان فرط الألم لدي هائلاً في كل

مراحل عمري). واي عذاب شيطاني: صداع. صداع مدوخ شديد الوقع يضطر هذا المخلوق المسكين الهاذي اياماً عديدة إلى الاستلقاء ببلادة على سرير او اريكة. تنتابه تشجنات معدية، وتقيؤات دم، وصداعات، وفقدن شهية، انحطاط قوى، بواسير، تلبك الامعاء،قشعريرات حمى، وعرق ليلي. اضف إلى هذا (العينين الغارقتين إلى ثلاثة ارباعهما في الظلام) تتورمان عند بذل أقل جهد، او تأخذان بذرف الدموع، ولا تسمحان له بالتمتع بالنور اكثر من ساعة ونصف الساعة في اليوم.

لكن نيتشه يزدري ارادة الجسد، ويستمر عشر ساعات متواصلة جالسا إلى طاولة عمله. عندئذٍ يثأر الدماغ المفرط الحرارة لنفسه من هذا الافراط بألم في الرأس عنيف، وتوتر عصبي. اذ ان الدماغ عند المساء، حين يكون الجسم قد تعب منذ زمن طويل، لايكف حالاً، ولكنه يمضي في اعداد رؤى وافكار حتى تدعو الحاجة إلى منوم لارقاده. على ان الحاجة تدعو الى كميات متزايدة (استعمل نيتشه خلال شهرين خمسين غراماً من هيدرات الكلورال ليحصل على قليل من الرقاد). ثم يأتي دور المعدة فتثور وترفض ان تؤدي الضريبة الفادحة. وتبدأ الآن (حلقة فاجرة) تقيؤات تشنجية، وآلام في الرأس جديدة تتطلب علاجات جديدة.

إن ذلك لاصطراع اعضاء مثارة لاهوادة فيه، شديد الحدة والنهم، متقاذف فيه متناوبة في لعبة جنونية كرة الألم الشائكة. مامن فترة للراحة في هذا الذعر ولا برهة قصيرة من شعور الارتياح، ولاشهر قصير من اللذة.

وقد وصف نيتشه مرة مرضه عندما تحدث عن (طلقات آلامه البسيطة) وهو قد عاش مثل جوليفر في بوردينياك، لايحاصره حصارا مستمراً إلا تجمهر الأقزام: آلامه، أعصابه منذرة بالخطر دوماً، لاينفك ساهراً مترقباً، تستأثر كل اهتمامه العناية المضنية، الشاغلة، الدفاع عن نفسه. ولم يفلح اي مرض حقيقي في ان يهزمه أو يتغلب عليه، عدا هذا المرض الوحيد الذي حفر خلال عشرين سنة نفقاً كانفاق المناجم تحت قلعة دماغه، ثم فجرها فجأة. ان عقلاً جباراً كعقل نيتشه لايقضي عليه رمي بسيط بالرصاص، ولايقدر الا الانفجار

وحده ان يقهر عقلاً صواني الدماغ كدماغه. هكذا تقابل القدرة الجسمية على مقاومة الألم، طاقة المتألم الجسيمة، إن هذه الحساسية المفرطة المشؤومة وشبه الجنونية لاعصاب نيتشه التي تطأ عتبة الحس لدى الغير، هي اصل آلامه، ومصدر طاقته العبقرية في تقدير القيم.

إن صحة نيتشه التي تقوي ذاتها في تعاظمها تقوية مفرطة، إنما هي ايماء ذاتي وصحة مخترعة. فهذه الحساسية المفرطة المشؤومة وشبه الجنونية لاعصاب نيتشه التي تزعزعها زعزعة اليمة ادق التبدلات العابرة التي تطأ عتبة الحس لدى الغير، هي اصل آلامه ومصدر طاقته العبقرية في تقدير القيم. فلا يحتاج لكي يرتعش دمه بتأثير انفعال عضوي، شيئاً محسوساً او حباً حقيقياً.

ومن المحتمل انه لم يوجد قط انسان مثقف قابل مثله للتعرض لكل التوترات، وذبذبات الاحداث الجوية هي التي تقوم مقام مقياس الضغط الجوي، والزئبق الحقيقي، والاحساس نفسه: يبدو ان بين نبضه والضغط الجوي وبين اعصابه ودرجة رطوبة الجو تماساً كهربائياً خفياً، تسجل اعصابه فوراً كل متر في الارتفاع، وكل ضغط جوي في شكل آلام في الأعضاء، فتقاوم بعصيان ينسجم مع كل تقلب في الطبيعة. وكم قطع هذا الشريد الهائم من آلاف الكيلومترات من الخط الحديدي، لمجرد الرغبة في اكتشاف المكان العجيب الخيالي الذي تنقطع فيه اعصابه عن اللج عليه، واعضاؤه عن التهيج. ويقطر شيئاً فشيئاً من تجاربه في علم الأمراض نوعاً من الجغرافية الصحية لاستعماله الخاص، ويطالع مصنفات علم طبقات الأرض الضخمة ليكتشف المكان الذي يبحث عنه، كأنه خاتم علاء الدين، لاستعادة السيطرة على جسمه وسكينة نفسه.

الألم في مفهوم نيتشه، ليس سوى ضفة المرض المظلمة، اما الضفة الأخرى فإن شعاعاً لايمكن وصفه، ينبعث منها وهي تدعى الشفاء، ولايمكن بلوغها إلا عن طريق ضفة الألم.ولكن الشفاء واستعادة الصحة يعنيان ماهو اكثر من بلوغ حالة الحياة الاعتيادية، انما ليس تبدلاً فحسب، بل اكثر من ذلك كثير، انهما ارتقاء، وتسام، وازدياد رقة.

# فولتيـر

جان فرنسوا ماري - فولتير - (١٦٩٤ - ١٧٧٨) كاتب فرنسي ومؤرخ، ومؤلف مسرحيات، وفيلسوف متشكك. ولد في باريس. نفي من بلاده مرات وسجن في الباستيل مرات اخرى. وضع عدداً من الكتب والمسرحيات اشهرها (رسالة عن التسامح) و (معجم الفلسفة) و(كانديد). وبلغ عدد مؤلفاته تسعة وتسعين كتاباً.

دخـل فولتـير الحياة بعـائقـين، صحته الضعيفة التي يشكو منها دون انقطاع، وان اتاحت له ان يشكو مدة ثلاثة ارباع القرن، وأصل برجوازي هو - وان كان مرضياً - يحرمه من الامتيازات المقصورة في ذلك العهد على الطبقة العليا من النبلاء، وكان هذان مصدرا انزعاج لانسان في مثل طبيعته.

اضافة لذلك كانت مغامرته العاطفية العنيفة وحلوله ضيفاً على السجون الفرنسية لفترات، كل ذلك جعل النورستانيا تكون داخل نفسه.

وقد كان قبيحاً بشعاً، مختالاً، معجباً بنفسه، فصيحاً بذيئاً، مستهتراً وأحيانا غادراً و فاسقاً. لقد كان رجلاً يحمل اخطار زمنه وعصره ومكانه، ومع ذلك فقد كان ينقلب أحياناً ويصبح لطيفاً رصيناً، منصفاً، سخياً مسرفاً في تبديد نشاطه وماله في مساعدة اصدقائه وتحطيم اعدائه، وكان قادراً على قتل عدوه بضربة قلم، هذا هو فولتير الرجل المتناقض.

كان فولتير مصاباً بالنورستانيا ولم تفارقه الى أن مات في الرابعة والثمانين من عمـره. والنورستانيا أو الضعف العصبي مرض نفسي يشكو المصاب به الشعور الدائم باجهاد واعياء عقلي وجسماني مصحوباً بثقل في الرأس وضعف بالذاكرة وعوارض اخرى. وليس هذا الشعور شعوراً طبيعياً نتيجة بذل مجهود عضلي وعقلي، انما هو تعب وهمي يرجع إلى اضطراب نفسي، وقد كان العالم

سيجموند فرويد يرى ان النورستانيا راجعة إلى الافراط الجنسي مما يؤدي إلى انهاك المجموع العصبي. ويرى العالم فيشين ان النورستانيا تظهر بالاشخاص الانطوائيين والذين يعانون من شعور بالنقص.

ومن المألوف أن يجيء تسلط الأفعال نتيجة تسلط الأفكار، فليس ثمة فعل انحصاري لايستند إلى فكرة متسلطة واعتقاد يستحوذ على الذهن. وقد عرف هذا النـوع من الاضـطرابـات العصبية الـوظيفية أول ماعـرف باسم النورستانيا وعصاب القهر ـ وكان المقصود بعصاب القهر أنه تندرج تحته صور المخاوف المختلفة والأفكار المتسلطة ـ ومع أن التسلط يفترق عن المخاوف في أن القلق الذي يظهر في التسلط يكون من عدم إنجاز الفعل بينما في الخوف يتسبب القلق من إتيان الفعـل. أي أن المـريض بالتسلط يتخلص من القلق بعدم الخروج على عادته في انجازالفعل.

ويعاني النورستاني مشاغل ذهنية وقابلية للايحاء فيما يتعلق بصحته. لقد أصبـح مهمـوماً ربما بسبب صعوبة عقلية في حياته لايستطيع التغلب عليها بنجاح، فهو يحمل همها أكثر فأكثر، ويجد نفسه يقضي وقتاً في التفكير فيها، والتفكير بطريقة انفعالية، طريقة شخصية ذاتية، ونظراً لخفض قوى مقاومته العقلية في هذه الأثنـاء، فهـو يعجـز عن أن يتخـذ وجهـة نظر موضوعية أو لاشخصية في الموقف، ويتقمص الفكرة أكثر فأكثر، حتى تصبح شغله الشاغل لامجـرد تسلط فكرة. فتسلط الفكرة شيء مرضي أكثر تحديداً من التوحد بها الذي يكون قد صار إليه. والطابع الانفعالي للمشغولية هذا يعمل من جانبه على اجهـاد المـريض. فليس شيء أكثر اجهاداً من الانفعال والقلق المستمر والهموم، التي تجعل المريض ـ من ناحية أخرى ـ أكثر قابلية للايحاء فيما يتعلق بأي شيء يتصـل بمشاغله. فاذا تدهورت صحته ـ كما هو المنتظر غالباً ـ أو ساءت حالة الهضم عنده.. الخ، فإن انتباهه سيكون منصباً على هذا العجز في فعـالية جهازه الهضمي، وسيكون هذا الانتباه ذا طبيعة انفعالية مما يزيد بدوره من اضطراب الموقف.

إن (ديه ين) يشير إلى أن المريض بالنورستانيا أكثر قابلية للايحاء من المريض بالهيستيريا. ويوافقه الكثير من الأطباء النفسيين حول فاعلية الايحاء فيما يتعلق بالمصابين بالاهتمام الزائد بالصحة ـ الايحاء الذي يسبقه بطبيعة الحال إقناع المريض واثارة تعقله، لابالطريقة الخلقية أو الخطابية، بل بتعمق علة أعراضه الحقيقية أو الأصلية.

# فيـدور دستـويفسكي

يعتبر دستويفسكي، الكاتب الروائي الروسي الشهير، عبداً للقدر، فهو اكبر منتصر على الألم بتواضعه وادراكه المعرفة، واقوى (مُغير للقيم) منذ زمن العهد القديم. لقد صنعت قوته الداخلية ضربات القدر وضربات المطرقة التي انهالت على سندان كيانه. كلما زاد عمق الهوة التي ينهار فيها جسمه كلما قوي ايمانه واشتد، وكلما غدت آلامه لاتطاق كلما احب ان يعرف معنى وحاجة الألم الشامل. و(حب القدر) لنيتشه، اخصب قوانين الحياة،يمنع دستويفسكي ان يرى في العداوة شيئاً آخر إلا افراطاً وان يرى في العذاب شيئاً آخر إلا طريق الخلاص، انه كبلعـام تتحول كل لعنة عنده إلى بركة، وكل ذل إلى سمو.

ومن يتـوصـل إلى معرفة ذاته معرفة كاملة، يعرف جيداً دستويفسكي الذي لامس الحدود لكل انسانية، وفي طريقنا إلى اعماله الأدبية، نجتاز مطهر الأهواء، وجحيم الرذائل وجميع درجات العذاب البشري: عذاب الانسان، وعـذاب الانسانية، وألم الفنان، الألم الذي هو اشد الآلام ضراوة، الا وهو الظمأ القاتل إلى الله، ولاشيء يحمينا من ان نضل الطريق سوى لهيب الرغبات وارادة الحقيقة. اذ انه يجب ان ننقب في اعماقنا قبل ان نقترب من هاوية اعماقه. انه لايبعث الينا بالرسل، والخبرة وحدها تقودنا اليه وليس هناك اي شاهد سوى هذا الثالوث المقدس لمن هو فنان بدمه وروحه: سماته، وحياته، وعمله الأدبي.

ويستشف من اعماله الادبية، ووراء كل وجه من وجوه اشخاصه، ووراء كل طية من حجبـه، انه يملك معاً، الظلام والضياء الابديان، لان دعوته ومصـيره متصـلان، بشكـل لايقبل الانفصال بجميع اسرار الكائن، وعالمه يتحرك بين الموت والخبّل، بين الحلم والحقيقة المشرقة. ومشكلة (الأنا) عنده تلامس دائماً مشكلة الانسانية التي لاتحل. واقل زاوية يسلط عليها الأضواء، لها في نفسها انعكاس من اللانهاية. انه رجل كاتب روسي، سياسي، نبي. وكيانـه يجعـل عاطفـة الخلود تتـألق بيننـا. . ليس من طريق توصلنا اليه،

ولايستطيع اي سؤال ان يسبر اعماق قلبه، والاعجاب الشديد وحده، يحق له ان يقترب منه، متواضعاً خجلاً، لانه لايقوى على السمو إلى درجة حبه واحترامه لسر الانسان.

إن حياة دستويفسكي قاسية منحطة كوجهه الخشن المبتذل، فنظن اننا امام معتوه. فلقد اشتركت جميع آلات التعذيب في عقاب جسمه الواهن، طوال ستين سنة، واعملت الحاجة مبررها، فحرمت شبابه وشيخوخته من كل عذوبة. الالم الجسمي يرهق اعضاءه، والحرمان يتغلغل الى اعماق حياته واعصابه تتشنج عبر اعضائه المتأججة المتقددة، ومهماز اللذة يحرك شهواته ولايروي ظمأها.

وعلى مدى ثلاثين سنة من مهنته ككاتب بقي دستوفسكي فريسة لداء الصرع. وكان هذا المرض ينتابه ابان عمله او في الشارع او في اثناء محادثة، وفي بعض الاحيان اثناء نومه. فتمسك يد الشيطان المريد، بعنقه وترميه بقوة إلى الأرض فيجرح وهو يقع.

وفي طفولته كان اضطراب الحواس والضغط النفسي اول نذير بالعاصفة، وحين سجن ظهر الألم الدفين. باعنف قوته. . هناك في الـ سجن انفجر ضغط اعصابه، وبقي هذا المرض اميناً له لايفارقه طوال حياته كالحرمان والفقر. والغريب في الأمر ان هذا الشهيد لم يحتج ابداً ضد آلامه. لقد اشتكى بيتهوفن من صممه وبايرون من رجله القصيرة وروسو من مثانته، اما دستويفسكي فلم يشك ابداً من تعاسته. زد على ذلك انه لم يحاول جديا أن يشفى من مرضه. ونستطيع ان نؤكد انه كان يحب مرضه الذي لايوصف لرذائله وللأخطار التي يتعرض لها.

إن حاجة الكاتب الى التحليل تروض آلام الرجل، فيتغلب دستويفسكي على الشر بتحليله ودرسه. ويصبح الخطر الدائم الذي يهدده سر فنه العميق، وتولد هذه الحالة جمالاً فريداً. وتنتهي لحظات الشعور هذه الى نشوة الذات الفكرية. أليس الصرع دليلاً على مرض نفسه؟ ذلك المرض الذي

لم يكن يخشاه بل كان على العكس يرحب به في رهبة، فكم من مرة وصف تلك اللحظة الدقيقة السابقة على النوبة حين يتقد ذهنه ويضيء كما تضيء النار، فتبدو له حياته واضحة في جزئياتها، وتبدو ذاكرته صاحية صحوا عجيباً ثم يتلوها العدم حيث تقف الحياة! ثم بعد ذلك يظل يوماً أو يومين وكأن الذاكرة لوح قد محي ماعليه من نقوش ورسوم.

بدت اعراض المرض عند دستويفسكي حين كان يمضي أيامه ولياليه في الكتابة وهو غارق فيها فلا يجيب على سؤال يوجه اليه إلا متزمتاً، فإذا انقطع عن الكتابة اتخذ مقعداًبجانب الغرفة واستغرق في القراءة. وقد أثرت هذه الحياة في صحته وأخذت تظهر عليه أعراض، مرض عصبي، فحدث له مرة أن خرج مع صديقه في نزهة فسقط في الطريق. وكانا ذات مرة يسيران ثم انعطفا إلى الشارع فإذا جنازة تقابلهما فما ان شاهدها حتى انتابته نوبة شديدة اضطرت صديقه إلى حمله بمعاونة بعض الناس إلى البيت، وكان يعقب هذه النوبات انقباض يستمر يومين أو ثلاثة فلا يقوى على العمل.

وصرع (دستويفسكي) كما وصف كان تشنجات في فقدان الوعي والسقوط. والمعلوم انه يسبق نوبة الصرع بحصر المعنى، في بعض الاحيان، مانسميه انذار الصرع: فالمريض يشعر بحصر حاد ولديه انطباع بالغرابة، ويعود الوعي الى حالته السوية تدريجياً بعد الهجمة. ومع ذلك ثمة حالة من الخلط العقلي تتوسط النوبة والعودة إلى الوضع السوي.

من خلال هذا الصرع كتب دستويفسكي العبقري العظيم أروع أعماله الأدبية، وكان بذلك عالم نفسي كبير بين علماء النفس، وأعماق القلب الانساني لها عليه تأثير سحري، وهذا هو عالمه الحقيقي: اللاوعي، والوعي الغامض، ومالايسبر غوره لقد ارتقى به المرض الى العاطفة التي لايستطيع الوصول اليها الناس العاديون، ثم القت به الحياة في خضم من الأحزان والحسرات والغوران لايعرفه الاحياء عادة، وجعلته يتنشق في ذلك الجو الذي هو بارد تارة ومحرق طوراً. انه كعصافير الليل يرى في الظلمة اكثر مما يرى غيره في غمرة

النهار. وحيث يتلاشى الآخرون ويهلكون، يشعر بحرارة العاطفة الدافئة. لقد اجتاز وابتعد جداً عن حالات النفس الهادئة، وعاش في النفس المريضة، ثم انتقل إلى احشاء الحياة السرية، ورأى الجنون وجهاً لوجه، وسار على ذرى العاطفة بثبات وتصلب واعتداد. لقد تغلغل إلى عمق لم يصل اليه الاطباء وعلماء النفس. ووصف مسبقاً بفضل ميله الطبعي، ونظرته النفّاذة، الاكتشافات الآتية: ظواهر مناجاة الأرواح، والهستيريا، واضطراب حواس المخيّلة، وأزمات الفساد، وانهال عليها بمبضع تجاربه ضرباً، وتبع آثار ظواهر النفس الى حدود الجنون، وإلى شواطىء الجريمة وهكذا قطع مناطق في النفس مجهولة لا قرار لها.

# موسوليني

اتصف موسوليني باغلب الاحايين باعراض الميغالومانيا، وهي دليل واضح على اضطراب نفساني، ان لم يكن على مس من الجنون، واذا امعنا في تحليل شخصية موسوليني نرى ان منطقة العقل أو عنصر الشخصية المسمى (الهي) (والذي كان يشار اليه في الاصل باللاشعور مع مافي نظامه من صفات طوبو غرافية وغيرها) تدل على تلك الصفة من صفات الشخصية التي تعتبر غريبة عن (الانا). و(الهي) هي اكثر أجزاء الشخصية غموضاً واكثر ابتعاداً عن منطقة الوعي، لانها لاشعورية بالكلية وخارجة تماماً عن نطاق الشعور الواعي. ويمكن وصفها مجازياً (بقدر مليء بالهيجانات الثائرة) وهي (الخزان الكبير للبيدو وغرائز الهدم). وللهي، نوعاً ما، بعض العلاقة بالعمليات الجسمية، وهكذا تضطلع بالاحتياجات الغريزية، معبرة عنها بطريقة نفسية. والهي بطبيعتها ـ كما يرى فرويد ـ عمياء، مندفعة وغير متعلقة، ولاتعني القيم الخلقية والادبية عندها شيئاً. وهذا الجزء من الشخصية لايعرف نظاماً وليست له ارادة موحدة. وتقف منه الدوافع المتعاكسة جنباً إلى جنب دون ان يبطل الواحد منها تأثير الآخر او تسحب عنه. وأقصى مايمكن ان يحدث لها هو ان تتوحد في تركيبات متوافقة تحت الضغط القاهر للتعبير عن نشاطها وطاقتها الحيوية. وأخيراً ان (الهي) ذات مناعة ضد الزمن بمعنى انها (تعترف) بمرور الزمن، ودوافع الرغبة فيها لاتتأثر بالزمن، وهي في الواقع خالدة لاتموت.

إن الذات أو الأنا هي وكيل الهي. والواقع انها جزء من الهي، وهي الجزء الذي كوّن وكيّف كنتيجة لعلاقته المباشرة بالعالم الخارجي. لذلك فالأنا هي مركز الذكاء والرشد، ولكبحها لنزعات الهي العمياء وضبطها، الى حد ما، تنقذها من الفناء. ومع ذلك فالأنا ـ حسب تعبير فرويد ـ ضعيفة لأنها مضطرة لاستمدادطاقتها من الهي ذاتها.

وموسوليني شأنه شأن كل فرد، لديه جميع الغرائز، اذا استثنينا ضعفاء العقـول. وكثيراً مايقال عن أحد الناس (انه مجرد من الخوف)، وعن إحدى النساء (إنها مجردة من الغرائز الجنسية)، وقد يكون هذا القول صحيحاً طالما كانت غرائزها لاتُفصح عن نفسها في الحياة الشعورية، فتختفي معرفتها على الناس. ولكن جميع الغرائز على الرغم من هذا موجودة، وهي فعّالة في كل حياة عادية. وقد يظهر تأثيرها في المسلك بصور مُصنّعة خادعة، كما يظهر الخوف الذي يكبته أحد الناس باسرافه في ادعاء الشجاعة، وكما تكشف إحدى النساء عن تطلعهـا الجنسي بإظهارها احتشامها، وقد يؤدي كبت الغرائز الى ظهور الأمـراض العصبية والخلقية. وفي مثـل هذه الحـالة يمكن بواسطة التحليل النفسي أن يُزال عنها الكبت، ومن ثم تظهر، وتبدو واضحة في الحياة الشعورية.

ولئن كان من الأمـور المحققة وجود الغرائز لدى كلِ فرد عادي، فإن وجودها بدرجات متساوية عند كلِ فرد مسألة أخرى. وكثيراً ماوجد عند ظهور غريزة ما ـ كالمقاتلة أو التملك مثلاً ـ بقوة زائدة، وُجِد أن رجحان هذه الغريزة لايرجع إلى أنها قد ورثت هكذا راجحة القوة، بل يرجع في الحقيقة إلى أنها قد أنميت انماء زائداً في عهد الطفولة. إن الظروف التي تنمى غريزة التملك في طفل معين، وغريزة حب الظهور في طفل آخر، مكوّنة مانسميه (اتجاه ميل) الـطفـل، هي ظروف عارضة أو طارئة في عهد الطفولة الى حد كبير. ولكن الغريزة إذا أنميت على هذا النحو في عهد الطفولة،فمن الأهمية بمكان أنها يجب أن يُعبر عنها تعبيراً تاماً وتستخدم استخداماً كاملاً في مستقبل الفرد. إن الطفل الذي تكون نزعة حب الظهور قوية لديه لايمكن أن يجد سعادته في العمل بأحد الدواوين، كما أن الشاب الذي تكون غريزة التملك قوية عنده يلازمه سوء الطالع اذ جعلنا منه فناناً مفلساً.

وعلى الرغم من النمو الخاص الذي يحدث للغرائز تحت تأثير الظروف السئية، فإنه من المرجح ـ من جهة أخرى ـ أننا كما نولد بأمزجة مختلفة، نولد

كذلك بغرائزنا وهي على درجات من النمو متفاوتة. فإذا ارتبطت المقاتلة والغضب - وهو شأن موسوليني - بإفراز الغدد الادرينالية، وارتبطت الغريزة الجنسية بالحويصلات المنوية أو بالغدد التناسلية، كان من المحتمل جدا أن تختلف هذه الغرائز في قوتها على حسب اختلاف تكوين تلك العقد. وهناك انماط معينة من الناس ترجع قوة غريزة المقاتلة أو الغريزة الجنسية لديهم إلى المزاج أي الى تكوينهم الفسيولوجي، بينما يرجع السبب في قوة هاتين الغريزتين أو ضعفهما عند أنماط أخرى الى ما للظروف البيئية وتجارب الطفولة من الأثر في نموها.

مما سقناه نرى ان الانعكاس هو داء موسوليني النفسي، ويحدد فرويد السيكولوجيا التحليلية للانعكاس على الشكل التالي (ان انعكاس احاسيسنا الداخلية على الخارج وهو آلية بدائية تؤثر أيضاً، مثلاً، على احاسيسنا الملموسة، بحيث أنها تؤدي عادة دوراً رئيسياً في بناء عالمنا الخارجي. وفي ظروف لم تحدد كفاية حتى الآن، حتى أحاسيسنا الداخلية المتعلقة بعمليات تكوين الفكرة وبعمليات انفعالية هي نفسها تنعكس الى الخارج، تماماً مثل الاحاسيس الملموسة، وهي مستخدمة لتغيير وجه العالم الخارجي، في حين انها ينبغي ان تبقى في العالم الداخلي). بالنسبة لمدرسة السيكولوجيا التحليلية، ان الانعكاس هو آلية دفاع الـ (انا) واوضح شاهد عليها هذيان موسوليني بداء العظمة. بوسعنا أن نتساءل عما اذا كان المفهوم الفريد عن الانعكاس، المحدد على هذا النحو، يكوّن اساس التجارب الانعكاسية. ان هذه النقطة رفضها عدة مؤلفين ببراهين قيمة. فقد اشار (بيل) الى انه في اختبارات عديدة، حتى تلك التي، مثل الاختبار المتعلق بتحسس الموضوع، تبدوكأنها تستجيب للتهديد على إحسن وجه، لم تكن عناصر مفهوم الانعكاس ماثلة باستمرار، كطابع انعدام توعّي الانعكاسات، ووظيفة الدفاع عن الـ (انا) وتقلص التوتر السيكولوجي.

# ليـوناردو دافينشي

يمكن القول ان دافينشي كان مصاباً بعقدة أوديب، كما صورها فرويد بعض الشيء. ففي حين ماتت امه انفق على جنازتها ١٠٨ قطعة ذهبية، في حين أن موت أبيه لم يثر عنده أي اهتمام.

لقد كان تعلق دافينشي بالأم كبيراً مع وجود الأب الصارم، وكان هذا من أسباب تجمد الحاجة الجنسية، وتجميد الليبيدو، اما أن يبقى في اللاشعور أو يزاح ويستعاض عنه بشيء آخر.

وبعد الدور الأول ينقلب حب الأم الى أن يلصق بالأم، فهو يتفحص شخصية الأم وينتخبها، كما لو كانت هي وسيلته الجنسية، أو هو في الحقيقة يحب نفسه، اي النرجسية. وربما كان هذا النوع من انواع المثلية الجنسية.

يمكننا ايراد حياة دافينشي بالآتي: يعتبر الولد في السنوات الأولى الأبوين كشخصيتين ممتازتين، إلا انه كلما كبر يكتشف انهما ليسا سوى شخصين عاديين لهما نقائصهما وتقصيراتهما. وربما أدى عدم رضاه بهما الى الاعتقاد ان والدي الأولاد الآخرين هم أفضل من والديه. وهناك في نفس الوقت عواطف تنافس جنسي عنيفة. فالاهمال أو الشعور بالأسف الناشىء عن ضرورة اشراك اخوته واخواته في حب والديه، قد يؤدي الى الاعتقاد ان ميوله غير معترف بها. مما يعكس الشعور الى اعتقاد الطفل بأنه ربيب أو متبنى. وعليه يصبح خيال الولد العصابي مشغولاً بالكيفية التي يمكن بها التخلص من والديه اللذين هما الآن، في مخيلته، غير أهل لأن يكونا في منزلة عالية. واذا ما اجتمع الولد صدفة بأشخاص من منزلة الاشراف أو ظاهرين في المجتمع يثور حسده وتراه يعبر عن هذا بنسيج من الخيال الذي من شأنه استبدال أبويه بأشخاص آخرين يتمتعون بمنزلة أعلى. ويخلق الولد في الخيال صورة رومانتيكية لأبوين آخرين حقيقيين ذوي منزلة رفيعة عالية.

ونمو معرفة الولد بالعلاقات الجنسية الابوية تمر بالرواية العائلية التي يتخيلها الولد في دور التقييد والحصر، بحيث يصبح مدركاً ان الأب هو دائماً في حالة تقلب، بينما الأم لاتكون كذلك مطلقاً. ويكتفي الولد عندئذ برفع قدر أبيه، ويقبل تسلسله من الأم كشيء لاريب فيه. وبازدياد معرفته بالعلاقات الجنسية يتجه نحو الخيال الجنسي الذي هو مجبر عليه كنتيجة للذة التي يشعر بها عند تصوره الأم، أو اي شخص يثير فيه أقصى درجة من حب الاستطلاع الجنسي، كخائنة لعهد الزواج في السر أو انها تمارس غراماً خفياً غير مرئي.

إن حب الانتقام والأخذ بالثأر هنا يستفزان الولد من ثانية، واذ كان قد عوقب من قبل الوالدين ـ كما يحدث عادة ـ للقضاء على عاداته الجنسية الرديئة، يعمد الولد العصابي الذي هو من هذا النوع للأخذ بثأره من والديه عن طريق الخيال. ويكون محاولة استبدال الأب الحقيقي بأب أرفع مقاماً التعبير عن زوال الـوقت السعيد عندما كان الأبوان يعتبران في نظر الولد شخصيتين ممتازتين. ولايظهر هذا التوق للوقت الذي كان يبدو فيه الأب أقوى وأعظم انسان والأم أعز وأجمل أم في الخيال فقط، بل يبدو أيضاً في أحلام العاديين من الناس.

اعتبر علماء النفس ان فكرة التوتر النفسي أو القلق الناتج عن نزاع بين القوى النفسية في الشخصية اساسياً في تاريخ التحليل النفسي الباكر. وتقول نظرية فرويد ان بعض الأفكـار المثقلة بالعاطفة تدفع ذاتها دوماً نحو المعرفة الواعية والاطلاع، وبعض الدوافع تدفع نفسها دائماً نحو التحقيق والارضاء الصريح. وهذه الأفكار هي المثقلة بالعاطفة.

ولكن الرغبات اللاشعورية تبقى ناشطة فعالة. وبعبارة اخرى، تبقى البـواعث الغريزية المكبوتة والرغبات اللاشعورية ذات تأثير في أفكار الناس وأعمالهم، وتظهر بطريقة متخفية أو مشوهة. أما أنواع هذا التشويه فمختلفة، ويعتمـد ذلك على شخصية الفرد وعلى الدور الذي بلغه الكبت على درجة المدنية التي توصل إليها الجنس البشري. وكي يحقق هذا التشويه، يستعمل العقل وسائل وأنظمة وهي الاسقاط، أي ميل الشخص إلى ان يعزو الى العالم الخـارجي العمليات النفسية المكبـوتـة جهلاً منه بأنها خاصة به أو تهرباً من

الاعتراف بها أو تخفيفاً لما يشعر به من الادانة الذاتية ، والاسقاط في هذه الحالة من اساليب التبرير والدفاع عن الذات .

اما الفعل ، أي فصل بعض عمليات عقلية عن مجموعة الشعور، فيكون بتمثل الشيء بعكسه وفي حالة الاستبدال ، أي توجيه الهدف الغريزي نحو اشياء اخرى غير الهدف الاصلي ولكن من نفس المرتبة أو المستوى . وفي حالة الانعكاس يكون اتخاذ دور الجنس المقابل كمايحدث في الجنسية المثلية وغيرها من الوسائل .

لكن بعض مطالب الوعي الرسمية والمنطقية تستلزم تعديلاً في مادة اللاشعور . ويحدث هذا التعديل مثلاً في التنقية الثانوية للانسان . وهناك عامل رسمي آخر يجب على مادة اللاشعور العمل بموجبه كي تصبح شعورية وهو الاتجاه نحو الشكل المبالغ به كما يظهر عند الفنان .

إن الدوافع المكبوتة هي مايمكن ان ندعوه عادة دوافع منافية للأخلاق . وتوخياً للدقة نقول إنها يمكن أن تدعى منافية للاخلاق حين تعرض لحكم أخلاقي . والواقع أنها لاأخلاقية إذ لايتناولها شعور بالصواب أو الخطأ . فهي إما دوافع جنسية أو دوافع عدوانية شريرة طاغية في طبيعتها ، ولكن أغلب العدوان ينجم عن دوافع عدوانية مكبوحة ، حتى أن من الممكن للمرء أن يقول إن الدوافع المكبوتة هي في الغالب دوافع جنسية . والأنا الأعلى من جانب، هي أوفر أجزاء الكائن حظاً من الأخلاقية ، وهي أشد أخلاقية من الضمير الأخلاقي المألوف لدينا ، وعلى ذلك يمكننا القول بمعنى ما أن الانسان بمقتضى التحايل النفسي يدل على أنه اكثر أخلاقية وتنافيا مع الأخلاق مما يعلم هو نفسه . وإذا فشلت الانا الأعلى المكونة منذ الطفولة الباكرة في أن تنمو نموا حرا لترتب على ذلك عواقب محتومة . ومن المعروف جيداً أن الأطفال خليقون ، في سن معينة ، أن يفرطوا في أخلاقيتهم ، أعني بهذا أنهم يعتبرون الانحرافات الطفيفة عن المقاييس التي لقنوها حديثاً ، آثاماً شائنه ذات خطورة مفجعة . وكثيراً من شقاء الطفولة ينجم عن هذا . واذا استمر موقف الطفل على هذا النحو أو إذا وجه توجيهاً يتعارض مع الآثار البعيدة الناشئة عن دوافع محرمة

لصارت جميع ضروب الأفعال الجائرة محرمة عليه في سنوات البلوغ. هذا التحريم يظهر للشعور مجرد انعدام يؤلف شكلاً من أشكال الاضطراب العصبي.

واذا تفحصنا في وجوه النسوة التي رسمها دافينشي نرى ان النفس البشرية هو تحوّل وانتقال، لذلك فلا بد من فهمها بطريقتين. فهي تعطينا صورة عن بقايا وآثار الماضي باكمله من جهة، ومن جهة أخرى تعطينا خطوط المستقبل معبراً عنها في الصورة ذاتها، بمقدار ماتستطيع النفس البشرية ان تخلق مستقبلها. ان النفس البشرية في أي وقت معين هي في آن واحد حصيلة وذروة الماضي وقاعدة رمزية للمستقبل، والمستقبل هومجرد شبيه للماضي ولكنه جديد وفريد في جوهره دائماً. وهكذا فإن القاعدة الحقيقية غير تامة، ويمكن القول انها بالنسبة للمستقبل، كما كانت، اشبه ببزرة.

لعل دافينشي قد جرد اللبيدو عن هدفه الحقيقي بدون (تعويض) حقيقي عنه، أي بدون وضع شيء آخر ذي قيمة متعادلة، وذي فائدة حقيقية مكانه - وهو اسلوب اسماه فرويد الانطواء أي قلب الظاهر للباطن - وهو ماعرضه الى الوضع الذي آل اليه. فاللبيدو المنطوي يعيد نشاط اشكال التكيف الباكرة مع الحياة، ولايحتاج البالغ لمواجهة صعوبة كبيرة في الحياة قبل ان يعاد ايقاظ الذكريات الفريدة الدائمة لأول وأقدم علاقة عاناها في حياته، وهي علاقته بالوالدين.

# ليـون تولستـوي

كان مرض ليون تولستـوي الكـاتب الروسي العالمي الشهير يتصف: بالفوبيا، اي المخاوف المرضية. ولد عام ١٨٢٣ وتوفي عام ١٩١٠، وإلى ان اشرف على العقد الرابع من حياته كان لايزال يعيش وحيداً لم يتخذ له شريكة في الحياة، ومع ذلك عرف الحب أكثر من مرة، وأحياناً آمالا فيقلبأكثر من فتاة، ولكنه كان دائمًا ينكص في اللحظة الآخيرة ويفر فراراً غير شريف. ولم يكن ذلك عن زهد في الزواج أو عن عقيدة في الاحتفاظ بحريته ولا عن خجل في طبيعته. فالزهد في الزواج لم يخطر له، لم يكن هو في ذاك الوقت ممن يرون في الزواج قيدا للحرية، والخجل ليس من صفات ذلك الرجل الذي أمضى الكثير من الليالي الصاخبة بين الخمر وبنات الهوى، ولكنه على الأرجح نتيجة لنفس قلقة غير ثابتة تتبين مظاهرها في الكثير من تصرفاته في كل أدوار حياته. ومظاهر هذا القلق في ذلـك الحين اعتقاده الراسخ بأنه مصاب بالسل، وتأصل هذا الاعتقاد في نفسه كان منذ سنوات. ومما زاد في اعتقاده إصابة أخيه نقولا وإصابة غير واحد من أقاربه بهذا الداء. وفي البلاد الشديدة البرودة كروسيا يتعرض الناس للاصابة بالأمراض الصدرية في سهولة ، ولكن ليست كل إصابة هي نتيجة لهذا الداء الخبيث.

خطر لتـولستـوي عام ١٨٥٨ أن يقوم برحلة الى عرب أوربا، فسافر بالباخرة من مدينة بطرسبورغ إلى شتتن من بلاد المانياومنها قصد برلين،وصحبه في هذه الرحلة بعض إخوته. وكان من بين الأغراض التي توخاها من رحلته زيارة طبيب مشهـور في تلك المـدينة للتأكد من حقيقة مرضه. وزار هذا الطبيب بصحبة هؤلاء الأخوة والأخوات، ففحصهم واعلن براءتهم من مرض السل الخبيث، إلا أنه حكم عليهم بأن يذهب كل عضو من أعضاء الأسرة إلى بلد من بلدان الاستشفـاء غير الذي وصفه للآخر، فكان على تولستوي أن يتم رحلته وحيداً.

وعاش بعد دلك عشرات السنوات وهو يردد مخاوفه من ان يكون مصاباً بمرض السل بعد ان مات اخوه بهذا المرض. وفي الحالات الشديدة من مرض تولستوي تكون جميع نواحي الشخصية من انفعالية وعقلية وارادية مضطربة منحرفة. ويغلب في حالات الحصار الشعور بالنقص، وفقدان الشعور الواضح بالواقعوبالحاضر، ولهذا السبب يكون المريض في حالة شك دائم في كل مايحيط به من أشياء وفي كل مايسمع ويقرأ: فإنه عاجز عن أن يستقر عن رأي نهائي يفوز باليقين والاطمئنان.

إن أمثال تولستوي هم من الناحية الأخرى على خير مايرام حتى تحل بهم تلك المصيبة التي تسلبهم هناءهم وهدوءهم، ويظلون على هذه الحالة النفسية التعسة حتى تنقشع عنهم تلك الغّمة فيعودون سيرتهم الأولى. وهم يشبهون تلك الغمة التي تنتابهم بسحابة كثيفة تغشى حياتهم لايستطيعون أن يتبينوا من خلالها وميضاً أو شعاعاً. فقد ران اليأس والقنوط على قلوبهم حتى فقدوا كل أمل لهم في الحياة، يقطعون أيامهم التعسة وقد استولى عليهم شعور من الذعر والفشل والتفاهة حتى اعتقدوا في قرارة نفوسهم انّ أمورهم لن تستقيم أبداً وأن جميع مشروعاتهم مصيرها الفشل الذريع، وأنه مامن أحد يعني بهم أو يقيم لهم وزناً.

وفي تعليل هذا المرض، يرد إلى الصدمات الناشئة من الأمراض العضوية، أو الى عجز الشخص عن التعويض عن شعوره بالدونية أو الى انخفاض مستوى التوتر السيكولوجي وتفكك بعض الوظائف العقلية بعضها عن بعض أو الى الصدمات الانفعالية المختلفة، وخاصة الانفعالات المصاحبة للسلوك الجنسي أو للعادات الجنسية، بعد أن تكون هذه الصدمات الانفعالية قد نسيت وكبتت في اللاشعور. والواقع أن السلوك الشاذ خاضع لنفس الشروط التي يخضع لها السلوك السوي من حيث قوانين التعلم والاكتساب. فكل مظهر سلوكي سواء كان سوياً أو شاذاً يعبر عن الشخصية بأكملها سواء كانت هذه الشخصية متكاملة أو غير متكاملة.

يمكننا أن نقول عن مخاوف تولستوي المرضية انها جزءاً من القلق، ولو ان الخوف في حالة الخواف ينشأ مرتبطاً ببعض الموضوعات، او الاشخاص، أو المواقف المحددة. والانفعال الشديد، والفزع والارتياع الذي يتملك الطفل أو البالغ في حالة المخاوف المرضية، يشبه القلق وكل الاضطرابات العصابية من حيث ان الخوف الشديد ليس له مايبرره، وأن الشخص يعرف ذلك، ولكنه يعجز عن التحكم في مخاوفه أو ضبط انفعالاته بصورة بناءة بما ينتهي به أيضاً الى العجز عن ممارسة حياته العملية والاجتماعية.

ربما افاد الطبيب الذي عالج تولستوي في سفرته عام ١٨٥٨ انه نصح هذا الشهير للتخلص من القلق بالتعرض التدريجي للاشياء أو الموضوعات التي يثيرها. وطريقة التطمين التدريجي التي يلجأ لها المعالج الحديث تقوم على نفس المبدأ،أي التشجيع على مواجهة مواقف القلق تدريجياً، الى أن تتحيد مشاعرنا الانفعالية الحادة، اي العصابية، نحو تلك المواقف. وقد عرف المعالجون السابقون هذا الاسلوب كما عرفه المعالجون المحدثون. ويعتبر مبدأ الكف المتبادل بمثابة الاساس العلمي الذي قدمه علم النفس الحديث لتفسير هذا الاسلوب. فإذا نجح الطبيب في استثارة استجابة معارضة للقلق (كالتطمين التدريجي) في حالة وجود الموضوعات المثيرة له، يمكن أن يؤدي ذلك إلى كف كامل للقلق وبالتالي يختفي ويتناقص بعد ذلك.ويتطلب اجراء التطمين المتدرج مراحل منها تحديد المواقف التي تثير المخاوف الرئيسية للشخص، ثم تدريج كل موقف منها على حدة في قائمة تبدأ بأقل المنبهات اثارة للخوف في الموقف مع الصعود الى اشدها اثارة، ثم يصبح الموقف معدا لاجراء العلاج بعد ذلك بأن نطالب من الشخص وهو في حالة استرخاء وهدوء أن يتخيل نفسه في الموقف الذي يثير أقل درجة من القلق في البداية مع تهدئته إلى ان تتحيد مشاعره مع الدرجات المنخفضة ثم يبدأ الانتقال للمواقف الاشد وهكذا حتى تنتهي القائمة.

☆ ☆ ☆ ☆

# نابليـون بونابرت

يمثل نابليون بونابرت، اذا ماقورن باوليفر كرومويل (١٥٩٩ - ١٦٥٩) الذي اطلق على نفسه حامي انكلترا، بعد نجاحه في الثورة التي اعلنها على الملك شارل الأول وانتهت باعـدام هذا الملك وقيام جمهـورية كرومويل التي عمرت عشر سنوات، نقول يمثل نابليون، المثل الأعلى، للجندي الانتهازي. وقد ناسبته (الثورة) لانها اتاحت له الفرصة. وفي ماعدا ذلك، لم يكن يأبه بها قيدأنملة. وعلى الرغم من تمجيده للوطنية الفرنسية، ومن اعتماده عليها، لم تكن فرنسا بالنسبة إليه، لتمثل، الا (كالثورة)، مجرد فرصة متاحة. فلقد استهوته في صباه فكـرة القتال من اجل كورسيكا، ضد فرنسا نفسها، ولم يكن نجاحه راجعاً، الى اية مواهب شخصية فذة بقدر ماكان ناجماً عن مهارة تقنية في الحرب واصـول القتال، ولم يكن انتصاره ليتحقق الا على حساب هزائم الآخرين. وكان في اللحظات الحرجة، كما في يوم ١٨ برومير ومعركة مارنغو، يعتمد على الآخرين في تحقيق انتصاره، ولكن مما لاريب فيه انه كانمحبواً بالموهبة التي تمكنه من استغلال مايحققه مساعدوه .لنفسه. وكان الجيش الفرنسي حاشداً بالشباب الـطمـوحـين، ولاريب في ان ذكـاء نابليون، لانفسيته، هو الذي مكنه من النجـاح، من حيث فشل الآخرون. ولقد كان ايمانه بنجمه، الذي قاده في النهاية إلى الهاوية، نتيجة انتصاراته لا السبب فيها.

ومما لاشك في صحته ان نابليون بونابرت لم يكن مكتمل القوى العقلية، فقد حاول لاشعورياً وعن طريق العدوان الخارجي (أو الداخلي في صورة نوبات وأعراض) تخليص نفسه من صراعات كانت تعتمل داخل نفسه دون أن يطيق احتمالها. كما كان شاذاً في كثيرمن تصرفاته شذوذاً يحمل على الاعتقاد بأنه كان مصاباً بمرض من الأمراض النفسية. وحسبه ماحام حوله من الشبهات، من انه أغوى أخواته واحدة بعد الأخرى واتصل بهن اتصالاً معيباً. وقيل أن **مخادع**

السيدات في عهده كانت أشد أثراً من قرارات وزرائه. ولعل هذا سبب ضعف ثقته في المرأة وقوله المأثور (إنني أشك في عفة كل امرأة جميلة). وكان يدعى الفلسفة، فيتكلم عن الخلود والروح، ويقرأ من فولتيروالأوديسيا والتوراة أمام حفل من الرجال والسيدات، ويزأر غضباً اذا ما غلب النعاس على السيدات.

وهذا نموذج من احدى مهاتراته:

(أين الروح في الطفل وفي الرجل المجنون؟ اذا دققت مسمار في عنقك فأين تذهب روحك؟ وما مصير الروح بعد الموت؟ واذا مت غدا أصبح جسدي في الثرى غذاء للكرمب والجذر. أنا لاأصدق ان المسيح عاش حقيقة، ولا أعتقد في الدين المسيحي إلا اذا كان منشؤه منذ الخليقة. لقد أخطأنا في انشاء مجلس الشيوخ والنواب. اذا شئت اذكاء نار الثورة في أمة فما عليك الا ايجاد ممثلين للأمة. إن المرأة لم تخلق الا للتوالد. من المضحك الا يكون للرجل إلا امرأة شرعية واحدة. اذا خيرت بين جميع الأديان لما اخترت إلا عبادة الشمس لانها وحدها آلهة الكون.

إن نفسية نابليون يمكن تحليلها من ناحية قصر قامته ومحاولته التعويض بذلك في اقامة علاقة جنسية متنوعة. وفي نظرته الدونية للمرأة، مع تشككه من الناحية الدينية.

وتحليلنا سينصب هنا على الناحية الرئيسية في نابليون وهي الجنسية والفردية، حيث تعتبر الجنسية الطريقة الطبعية الوحيدة لشفاء أو على الأقل لتلطيف حدة صراع الارادة الذي ينشأ فيها يتعلق بالشخص الآخر والعالم ومشكلة الفردية، اي الصراع الأخلاقي الأولي. ولابد من اعتبار الصراع الجنسي العصابي كمظاهر لصراع الارادة الأول.

إن الشخص العصابي من الجنسين غير قادر على الاستسلام للفريق الآخر، او التوافق مع نفسه، لأن صراع الارادة الداخلي عنده، بما فيه الصفة السلبية المتسلطة عليه، شديد الى حد انه لا الحظ الطيب الخارجي ولا التفريج الداخلي يمكنهما حمايته من ردود فعله الخاصة الهدامة. وهو غير قادر على

الاستسلام والاتحاد ،لأنه لايستطيع تحرير نفسه من الوعي بنفسه. ويعمد الطبيب النفسي خلال المعالجة الى تبرير ارادة المريض وجعلها ارادة صالحة، ويمكّنه من قبول نفسه واسترجاع الوحدة مع نفسه، وتحرير ذاته من شعوره المتزايد بنفسه، والتخلص من مختلف ردود الفعل المدمرة لنفسه وللآخرين، ويصبح قادراً على قبول دوره الجنسي دون خوف من فقدان فرديته، والسبب الجزئي لذلك هو ان علاقة الحب تمكن من التوصل الى اندماج بعيد المدى والى زوال الاختلافات العاطفية. والسبب الجزئي الآخر لذلك هو ان هناك توكيداً وازدياداً للاختلاف الذي يفعل فعله لحسن الحظ، مادام هناك اذعان طوعي للارادة وافتقار الى الدفاعية.

هناك مبدآن هامان متعارضان في أية علاقة عاطفية هما: الحب والقوة. فالحب وبواسطة الحب، بشرياً كان ام سماوياً، يتمكن الانسان من قبول نفسه وارادته لأن غيره يفعل ذلك. فالقوة او الالزام الارادي يتعارض تماماً مع الحب ويعمل بشكل هدام.

لكن الانسان الحديث لايستخدم الميل الجنسي لمجرد اللذة أو التناسل بل كمنفذ للعاطفة اواداة للارادة. وفي اختبار الحب المثالي يتمتع الجنسان بالشعور الطيب الناتج عن تحقيق الارادة، كما وانهما يفرجان عن شعورهما الفردي في السرور المفرط والاستسلام العاطفي، وأخيراً يحرران نفسيهما من الاثم عن طريق انتاج طفل. ومع ان انتاج الطفل هو وظيفة تناسلية بيولوجية فهو يصبح انتاجاً فردياً عن طريق تدريب وتربية الطفل. ولسوء الحظ كثيراً مايجعل تصادم ارادتي الشريكين هذا الاختبار المثلث النواحي قصير الأمد.

على ان الفرد الخلاق لايكتفي بأن يكون منتجاً لمخلوق آخر. فالجنسية والحب هما غير كافيين للرجل الخلاق، لأن الدافع الفردي الخلاق الملح يصبح محدود النطاق بتأثير الارادات الغريبة المضادة. وبالاضافة الى هذا فإن عملية الخلق ليست من الأمور التي تحدث مرة واحدة فقط، فهي التعبير الدائم المستمر لمأثره وتحصيل ارادة الفرد، والتي يسعى الفرد بواسطتها، بالخلق الذاتي، للتغلب

على اكـراه الغـريزة الجنسية البيولـوجي والالـزام السيكـولوجي الرامي إلى الاستسلام العاطفي . وهذا هو التفسير للاثم الذي تكونه الشخصية الخلاقة، بحكم الضرورة، عن طريق نمو الفردية وتقويته.ويذهب الشخص الخلاق في اتمام ارادته الى ماهو أبعد من الحدود التي تفرضها الطبيعة، وذلك بتغلبه على الغريزة الجنسية البيولوجية التي يكون رد فعل الأنا او الذات عليها هو الشعور بالاثم. وفي الخلق الـروحي النفسي تكـون الانـا مقاومة للعالم وتتحكم فيه بالنسبة لارادتها، ويرتكب الشخص الخلاق خطيئة آدم، أي انه يرغم الغريزة الجنسية ان تكون في خدمة ارادته الفردية .

# نيرون

لم يكن نيرون الظالم إلا صورة لغيره من أباطرة الرومان وأبطالهم الذين كانـوا يشـاهـدون الشجعـان تفتـك بهم الأسـود وتمـزق أجسـادهم وهم في مقصـوراتهم الفخمـة، يأكلون ألسنة البلابل مشوية في أطباق من الذهب، ويحتسون أعتق الخمور في أكواب المعادن الثمينة، تحيط بهم الكواعب الحسان الخليعات المستهترات.

أمـا نيرون فحسبـه شذوذاً وجنـوناً أنه قتل جميع أقاربه والكثيرين من أصـدقـائـه، وحمـل معلمه سنيكا الفيلسوف على الانتحار، وحاول ذبح أمه (اجريبا) ذبح الأغنام واستعمل عدة وسائل للفضاء عليها. التي كانت تستشاط لما يقوم به من اعمال تنافي كونه امبراطورا، وفي نهاية الامر طاردها رجاله الى دارها، فلما قبضوا عليها خلعت ثيابها وقالت لهم (اطعنوا غير آسفين هذا البطن الخبيث الذي حمل ذلك الوحش المفترس). واحتاج قتلها عدة طعنات، ولما رأى الامبراطور جثتها العارية كان كل ماقاله: لم أكن أعرف أن لي اماً بمثل هذا الجمال.

وكانت مهام الدولة في عهده وسياستها الخارجية والداخلية تقرر في اسرة النوم وحجرات النساء، وهيأت له ثائرته الجنونية انه فيلسوف وشاعر وموسيقي ومؤلف، فأرغم الشعب على الاستماع اليه. ومن أغانيه الكثيرة ملحمة طويلة عن طروادة (جعل بطلها باريس) ثم شرع يكتب ملحمة أطول منها عن روما. وبلغ به الخـوف والهـذر ان يخرج (مواهبه) المسرحية من مكامنها، فظهر على مسرح روما ممثلاً لدور أوديب وهرقل وألكميون، بل انه مثل أيضاً دور ارستيز، قاتل أمه (وهو ماأقدم عليه) كما عمل موسيقياً وراقصاً، وفي سنة ٦٦ ميلادية أراد ألا يحرم الشعب الاغريقي من نبوغه فظهر بعظمته الامبراطورية على مسرح اوليمبياودلفى تباعاً، وجاء تمثيله مهزلة تاريخية، واغتبط الجمهور حين شاهد

امبراطوراً يعنى بتسليتهم ويركع على المسرح أمامهم ويطلب اليهم ان يصفقوا له حسب مألوف عادتهم.

حين توفيت احدى زوجات نيرون واسمها بوبيا عام ٦٥ حزن حزناً شديداً على موتها، ثم عثر على شاب يدعى اسبورس عظيم الشبه ببوبيا، فأمر بخصيه، وتزوجه في احتفال رسمي (واستعمله في كل شيء كما تستعمل النساء) وقال في ذلك احد المتفكهين انه يتمنى لو ان والد نيرون قد عثر على مثل هذه الزوجة. وعلى ذكر والد نيرون فقد كان مجنوناً وورث ابنه ذلك، حيث قتل عبيده المحررين لأنهم أبوا أن يشربوا من الخمر القدر الذي يرغب فيه.

لما توفي نيرون بعد أن أردى نفسه قتيلاً، لقب بالظالم حسن الرذيلة، كما لقب طبريوس بالظالم الشهواني، واقلاديوس بالبهلوان المتحذلق، وجابوس بالمجذوب المعتوه.

يقول (ادلير) ان كل فرد يجد نفسه في الضرورة القاهرة لحل ثلاث مسائل كبرى في الحياة: مسألة العلاقات مابين الـ (انا) وبقية العالم: صداقة، علاقات اجتماعية، دين (بمثابة علاقة مابين الفرد والكون)، ومسألة المشاغل اليومية (عمل، ويبدأ لدى الطفل في المدرسة) وأخيراً لاآخراً، المسألة الجنسية التي حلها الوحيد (العادي) هو الزواج المنفرد. وكلما عانى شخص بشري مشاعر السفلية (عقد النقص) - وليست (عقدة التفوق) أو (مركب التفوق) في الغالب سوى التعويض الوهمي والخيالي عنها - تداعى أكثر فأكثر شعوره الفطري بالاجتماع - وهوى أكثر فأكثر في (العصبية). ان المسائل الثلاث الكبرى او المهمات تبدو للشخص الحامل مشاعر العجز والقيمة الناقصة على انها عسيرة جداً - عندئذ، بدلاً من محاولة حلها، يلجأ الى التعويض عنها بوسائل مستحيلة او الى التعويض عنها بعوض يفوقها، واشكال هذا التعويض قد تتنوّع الى مالانهاية. ان حل مهمات الحياة الثلاث الكبرى هو الشريط المسبق للعافية الذهنية. ان الأعراض العصبية والأمراض العصبية هي (حركات) بواسطتها تترجم درجة او نسبة النقص في حلّها. انه لأول مرة يتأسس منهج للسيكولوجيا

المرضية على مطلب قوي، والمطلب القومي الاجتماعي يصبح العلاج الشامل لمداواة أي شكوى على الصعيد النفساني. وهكذا، فإن اي اضطراب عصبي يكون، في الاساس، (اعتداء)، مباشر الى حد ما، او مقنعاً إلى حد ما، ضد الجماعة التي تظهر على انها مؤلفة تارة من نديم اجتماعي او جنسي فردي، وطوراً من الاشقاء والشقيقات او العائلة، واحياناً من الانسانية جمعاء.

كانت القيادة في نظر نيرون غاية في ذاتها، تمثل أمنا داخلياً بالنسبة اليه. فقد كان يرفض أي نقاش لسيطرته ويطالب الآخرين بكل شيء، ولكنه لم يكن يعطي شيئاً. وبما أنه عدواني، فهو ضعيف بالتالي، وقيادته هجوم متستر، كان يهاجم خوفاً من أن يهاجم وأن ينال منه ويذل. فالسلطوية والسيطرة هما له، تعويضان يمثلان المقام الأول، ذلك أن اذلال الآخرين كان يمنحه وهم السمو والقوة. يضاف إلى ذلك أنه كان يشعر بانه انجز عملاً، ولكن دون أن يتوجب عليه صرف الطاقة الخلاقة الضرورية التي يقف حيالها عاجزاً.

# المراجع
## باللغة العربية


١ ـ آفاق الفكر المعاصر غايتان بيكون (لم يذكر اسم المترجم) منشورات عويدات ـ بيروت ١٩٦٥

٢ ـ تحليل مائتي حالة نفسية سمير عبده المكتبة الحديثة ـ دمشق ١٩٨٥.

٣ ـ دستويفسكي ستيفن زفايغ ترجمة فريد انطونيوس دار ابن المقفع ـ دمشق ١٩٥٥.

٤ ـ شفاء النفس د. يوسف مراد سلسلة اقرأ رقم ١٠ دار المعارف بمصر.

٥ ـ في معركة الحضارة قسطنطين زريق دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٦٤.

٦ ـ مرضى النفس في تطرفهم واعتدالهم د. محمد فرغلي فراج الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة ١٩٧١.

٧ ـ نظرة في أعماق الانسان د. محمد صبحي ابوغنيمة مؤسسة النوري ـ دمشق ١٩٥٨.

٨ ـ نظريات الشخصية هول ليندزي ترجمة فرج احمد فرج وآخرين الهيئة العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧١.

٩ ـ التفكير السديد جوزيف جاسترو تعريب نظمى لوقا مؤسسة الخانجي بالقاهرة ١٩٥٨.

١٠ ـ التحليل النفسي ارنست جونز ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي مكتبة القاهرة الحديثة ١٩٥٦.

١١ ـ الموسوعة الفلسفية المختصرة ترجمة فؤاد كامل، جلال العشري، عبد الرشيد صادق مكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة.

١٢ - الموسيقى والحضارة هوجو لايختنتريت ترجمة أحمد حمدي محمود الدار القومية - القاهرة ١٩٦٤
١٣ - الارهاق العصبي نظمي خليل سلسلة اقرأ رقم ٢٠٢ دار المعارف بمصر ١٩٥٩.
١٤ - الاحلام والجنس: نظرياتها عند فرويد جوزيف جاسترو ترجمة فوزي الشتوي دار الكتاب المصري - القاهرة.
١٥ - فريدريك نيتشه ستيفان زفايغ ترجمة نقولا قربان وندیم مرعشلي مجلة العلوم - بيروت نيسان ١٩٦١.
١٦ - مجلة الهلال - القاهرة نوفمبر ١٩٤٧.

## المراجع
## باللغة الانكليزية

17 - H.R,Beech: Changing Man's Behavior. London: pelican Book 1972
18 - E.Hunter: Brainwashing, the Story of Men who defied it - Farrar, Straus and Cudahy, New York, 1956
19 - Will Durant: The Story of Civilisation, Volume III,Partli, Caesar and Christ, The New American Library 1955
20 - Eysenck: & S.Rachman: The Causes and Cures of Neursis. London: pergamon Press, 1960
21 - S.Freud: Ceative Writers and Day -Dreaming.in P.E. Vernon (Ed), Creativity. London Penguin,1975
22 - Freud: Collected Papers, Vol II. The Hogarth Press, Ltd. London
23 - Karen Horney: New Ways in Psychoanalysis, W.W.Norton & Co,Inc.New york

24 - R.Hagen: Behavioral Therapies and the treatment of Schizophrenics. Schizophrenia Bulletin, 1975. Issue No.13'PP
70 - 96

25 - Ernest jones and G,Stanley Hall, Garden City Publishing Co Garden City, New York.

26 - A.E.kazdin: Behavior Modification in Applied Settings. Homewood, Illinois: Dorsey Press, 1975

28 · karl A.Menninger:Man Against Himselt. Harcourt, Brace & Co, Nem York

29 - Robert Thomson: The psychology of Thinking. Penguin Book, London 1962

30 - V.Yermilov: F.M.Dostoyevsky, Translated from the Russian by j.Kqtzer. Forcign Languqres Publishing House
- Moscow

☆ ☆ ☆ ☆

SAMIR ABDOH

# Psychology of the Renowned

# الفهرس